عبّاس سليمان

جحيم الجنة

رواية

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مبروكي 2021

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

نسخة الكترونية

tél. +216 98 603 987

عبّـاس سلـيمان

جحـــيم في ألُجنّـة

روايـــــة

الكتاب: جحيم في الجنّة

المؤلف: عبّاس سليمان

الجنس الأدبي: روايـــــة

تصميم النسخة الإلكترونية غلافاً و محتوىً:

صالح مبروكي-مارس 2021

tél. +216 98 603 987

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-1-

نتاهى إلى سمع سعاد نباح جروها المضطجع منذ آخر اللّيل إلى يمينها فمدّت يدها إلى اللّحاف تغطّي به رأسها حتّى لا يصل إليها النّبـاح ولكنّ الجرو ظلّ يعـوي ويناديها بلا انقطاع. جذبت سعـاد المخدّة مـن تحت رأسها وألقت بها علـى وجهها وأذنيها فخفّ وقع النّباح قليلا ولكنّه لـم يهدأ ولم ينقطع... مكرهة، مدّت سعاد يدها إلى الجرو، أمسكته بين أصابعها وقرّبته من عينيها شبه المغمضتين محاولة أن نتبيّن من خلال وجهه المضيء ملامح هذا المنادي العنيد.

- آلو، ماما ، صباح الخير. ماذا هناك؟ لابأس؟

قالت نبرات الصّوت للأمّ إنّ ابنتها كانت تغطّ في نوم عميق وإنّها سهرت البارحة إلى وقت متأخّر وإنّها مرهقة.

أحسّت نحوها بفورة غضب سرعـــان ما حوّلتها إلى موجة شـــــوق وإشفاق شديدين.

- أنت طلبت أن لا أخفي عنك شيئا بخصوص معتزّ.
- معتزّ؟ ما به ؟ تكلّمي.
- حادث مرور بسيط... هو بخير... وسيكلّمك الآن... كان يمتطي درّاجته التي اشتريتها له منذ أيّام ... ضايقته سيّارة ففقد توازنه وهوى أرضا... وسقطت بسقوطه بعض أسنانه الأماميّة... فقط..

لم تجد سعاد كلاما تردّ به... ولم تعترها رغبة في أن تكلّم طفلها معتزّا. ران بين الإثنتين صمت قصير قطعته الأمّ قائلة:

- هو بخير ... ودفع الله ما كان أعظم... ولكنّك لن نتركيه هكذا دون أسنان.

ردّت سعاد:

- حاضر. أرجوك ، امنعيه من ركوب الدّراجة وسأنظر في أمر أسنانه.

أعادت الجرو اللّعين إلى مكانه وفضّت بحركة عصبية إحدى علب السّجائر النّائمة على يمينها، أخرجت سيجارة أشعلتها وأخذت تنفث في فضاء الغرفة الدّخان و هي تزفر و تتأفّف.

" هم يقولون إنّ البنين زينة الحياة الدّنيا، أليسوا في أحيـان كثيرة نكدها ونقطة سوادها والسّوس الذي ينخر بهجتها؟

ألا يكفي الهمّ الذي أنا فيه حتّى تزداد دنياي غمّا بمشاكل معتزّ التي لا تنتهي؟

مشاكله في البيت مع أمّي وفي الحـيّ مع الجيـران وأطفالهم وفـي المعهد مع الإدارة والأساتذة و زملائه.

أمّي قالت إنها استنفدت معه كلّ أساليب التّرغيب والتّرهيب التي تعرفها وإنّه أصبح يقاطعها أحيانا لأيّام ويقاطع أكلها ويعود إليها ليلا بعد أن تكون قد بدأت تشبع نوما وإنّ مصاريفه أصبحت ترهقها...

الجيران يقولون إنّه يتحرّش ببناتهم ويخاصم أولادهم ويفسد من لا يخاصم منهم بجرّه إلى التسكّع والسّهر والتّدخين وسوء الأدب.

وفي المعهد قالوا إنّ نتائجه آخذة في التّدنّي وإنّه لا يحترم أساتذته وإنّه اعتاد أن يختلق مشاكل في الفصل و خارجه.

اشترط هاتفا جوّالا فوفّرت له واحدا ادّعى بعد مدّة أنّ عطبا أصابه فمكّنته من واحد آخـر... وأشترط درّاجة ناريّة بدعوى أنّه سيركبها للتنقّل إلى أصدقائه الذين يراجع دروسه معهم وإلى الأساتذة الذين يقدّمون دروسا خصوصيّة... فرجوته أن يمهلني مدّة ثمّ وفّرت له واحدة... وقال إنّ مصاريفه ارتفعت فضغطت على ميزانيّتي الخاصّة لأضاعف من المبلغ الذي أرسله لأمّي كلّ شهر... ثمّ ها هي جدّته تقول إنّ أسنانه سقطت..."

أشعلت سعاد سيجارة أخرى... ملأت صدرها تبغا و نفثت في فضاء الغرفة دفعة كثيفة من الدّخّان ثمّ أخذت تتابع بعينيها ما يتشكّل أمامها من صور ومناظر... فجأة تسمّرت عيناها على منظر شدّهما... منظر فم مفتوح عن آخره كغار عميق خال إلاّ من لسان يجول تائها متحسّسا مواقع الأسنان... أفزعها المنظر فحوّلت نظرها عن سحب الدّخان ومدّت يدها إلى النّافذة المجانبة تفتحها... أسرعت كتلة من أشعّة الشّمس تغزو الغرفة... كأنّ هذه الدّفعة كانت وراء الشّبّاك تنتظر من يسمح لها بالدّخول ... انتشر الدّخـــــان وتفرّق واختفى من الفضاء شبح الفم الأحمر الخالي من الأسنان... لامس الضّوء الدّاخل عبر النّافذة عيني سعيدة ففركتهما قليلا وأخذت تفتحهما ببطء ثمّ التفتت إلى سعاد:

- صباح الخير ... ما بك؟
- لا شيء.
- لماذا قطعت نومك إذا؟
- أمّي كانت على الخطّ..
- حدث مكروه؟
- معتزّ سقط من فوق درّاجته وفقد بعض أسنانه.
- يا لطيف ! وماذا ستفعلين؟

- يجب أن يُـملأ فمه بأسنان أخرى، ولكن ، من أين؟
- ألن تسافري إليه؟

ألم أكن هناك منذ أسبوع واحد؟ لن أتجرّأ وأطلب من سي عبدالله أيّام راحة أخرى.

- لن يوافق بالتّأكيد.
- لن يوافق.

بقدر ما تألّمت سعيدة لمصاب صديقتها ورفيقة غرفتها وزميلة عملها سعاد بقدر ما شعرت بموجة من الفرح لمجرّد أن انتبهت إلى انّه من نكد الدّنيا على المرء أن يُرزق بولد شقيّ كمعتزّ فحمدت في سرّها الله لأنّها لم تنجب رغم أنّ فرص الحمل قد توفّرت لها مرّات و مرّات.

ورغم أنّها اعتادت أن لا تترك سريرها إلاّ قبل الواحدة ظهرا بقليل موعد نزولها إلى القاعة الكبرى بالحانة، فإنّها نهضت واتّجهت نحو المطبخ الصّغير حيث أعدّت قهوتين وضعتهـــــما على صينيّة مع قطع من البسكويت وملعقتي عسل وعـادت تحثّ "سعاد" على أن تنسى لحيـن حادثة ابنها وأن نتناول معها الإفطار ثمّ تفكّران معا في حلّ سريع.

-2-

تفتح قاعة الحانة بابها للزّبائن مع تمام الحادية عشرة صباحا وإليها تبادر ليلـى وفاتن بالنّزول للقيام بخدمة الحرفاء. وتلتحق بالإثنتين بعد ساعتين سعاد وسعيدة. ومن الواحدة بعد الزّوال إلى الحادية عشرة ليلا تمتلئ القاعة حتى تغصّ أحيانا بنزلائها. يكثر الدّاخلون وتكثر طلباتهم و يكثـــــــر اللّغـط والضّجيج والضّحك والقهقهات وتنشب خصومات أحيانا. مع حلول الحادية عشر تصبح طاولات عديدة شاغرة ولا يبقى بالقاعة غير زبائن قليلين اعتادوا السّهر إلى آخر اللّيل أو جاؤوا الحانة متأخّرين فتغادر المكان ليلى وفاتن لتصعدا إلى غرفتهما فيما تظلّ سعاد وسعيدة في خدمة آخر السّكارى إلى تمام الواحدة أو إلى ما بعدها بقليل يؤانسهما رفيق الذي لا يبرح "الكونتوار" يمدّهما بطلبـات الزّبائن ويقبض منهما ثمـن تلك الطّلبات. ويظلّ مع الثّلاثة عبد الستّـار وعبد الكامل الشّابّان القويّان القائمان بحراسة بـاب الدّخول والخروج والمكلّفان بفضّ المشاكل المستعصية التي تحدث بين الزّبائن أو بيـن الزّبـائن والفتيات.

تمتدّ مساحة الصّالــة على أكثر من مئتي متر مربّع تـوزّعت داخلها طاولات وكراسي خشبيّة ثقيلة وفي سقفها بثّت فوانيس ملوّنة وعلى جدرانها ركّبت أجهزة تكييف تقي الحرفاء حـرّ الصّيف وقرّ شهور الشّتاء.

وبتوجيه من سي عبدالله صاحب الحانة، يقع اقتسام الصّالة بين اثنتين من الحادية عشرة صباحا إلى الواحدة بعد الزّوال وبين اثنتين أخريين من

الحادية عشرة ليلا إلى الواحدة صباحا فيما تقوم بتغطية كلّ ركن من الأركان واحدة من الفتيات الأربعة من الواحدة ظهرا إلى الحادية عشر ليلا.

ولا يجلس أغلب القادمين إلى الحانة أينما اتّفق إنّما يذهب كلّ وافد إلى ركن معيّن لا تمييزًا للرّكن في حدّ ذاته إنّما انحيازًا إلى الفتاة المكلّفة بذلك الرّكن... فأحبّاء سعاد يممّون وجوههم مباشرة نحو المربّع الأيمن الواقع تحت "الكونتوار" بينما يتّجه محبّو سعيدة إلى المربّع الأيمن الذي يلي باب الدّخول مباشرة... عشّاق فاتن لا يختارون إلاّ الطّاولات الواقعة على يسار "الكونتوار" فيما المعجبون بليلى والمفضّلون لها ولخدماتها دون سواها ينحرفون بعد الدّخول إلى الرّكن الأيسر مباشرة.

لذلك يبدأ حرفاء فاتن وليلى في التّوافد على الحانة مع حلول الحادية عشرة صباحا ولا يبقى أيّ منهم بعد الحادية عشرة ليلا فيما عشّاق سعاد وسعيدة يأخذون في الدّخول إلى الصّالة مع الواحدة زوالا ويمكن أن يظلّوا فيها إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل.

وحدهم يجلسون وراء أولى الطّاولات الشّاغرة ضيوف الحانة الذين لا تربطهم بها ولا ببناتها معرفة مسبقة ولا يهمّهم من أمر الخدمات سوى أنّ من سيقوم بها أنثى.

صالة الحانة مملكة تحكمها فتيات أربع اختارهنّ سي عبودة طبق مواصفات دقيقة جدّا ووفق شروط معلومة مسبقا. وتربط سي عبودة بأصحاب حانات ومراقص وعلب ليليّة وملاهي منتشرة في مدن أخرى علاقات تبـــادل وتعاون واستخبارات ومشاورات لا تنتهي ولا تنقطع. ولا يستبقي سـي عبد الله تحت تصرّفه إلاّ من تطيعه طاعة صمّاء وتنفّذ شروطه كـاملة دون تحريف يزعجه وتتحمّل شروط الحرفاء وركاكة بعضهم دون امتعاض... لا يستبقي

سي عبد الله تحته إلاّ من تفيده إحصائيّاته وحساباته التي يجريها بمساعدة ابنه بدقّة وانتظام أنّها تؤمّن باستمرار مبيعات ومرابيح متزايدة.

من شروط سي عبدالله في فتيات حانته أو في نسائها أن يكنّ جميلات جدّا... قادرات بحركاتهنّ ولباسهنّ وغنجهنّ على إغراء حرفائه الكثيرين... مقتدرات على السّهر لخدمة الزّبائن لساعات طويلة راضيات بالعمل على راحته هو شخصيّا كلّما ملّ من غيرهنّ وعنّ له أن يتحوّل إلى إحداهنّ... منصرفات إلى العمل غير راغبات في التغيّب عنه إلاّ لأسباب قاهرة وبعد ترخيص مسبق ولأوقات محدودة.

وفي مقابل ذلك يؤمّن سي عبدالله لنادلات حانته إقامة شبه مريحة تتمثّل في غرفة ومطبخ فوق الصّالة لكلّ اثنتين ويقدّم لكلّ واحدة جراية شهريّة لا يعلنها ولا يسمح لأيّ منهنّ بإعلانها كما تتمتّع فتياته براحة سنويّة تمتدّ على شهر كامل تبدأ قبل رمضان بيوم واحد و تنتهي بانتهاء صبيحة عيد الفطر.

ويضطرّ ما يمليه عبودة من شروط من ناحية وأسلوبه في توزيع العمل من ناحية أخرى الفتيات الأربعة إلى التّنافس في الإغراء وفي شدّ الحرفـــاء وربط علاقات وطيدة معهم بل وتحمّل إساءاتهم و خروجهم عن اللّياقة كلّما بدأ السّكر يتعتعهم.

ويضطرّ الفتيات إلى تدليل الحرفاء والسّهر على راحتهم ما يجود به أغلبهم من أكل وغلال وعلب سجائر وبطاقات شحن هواتف جوّالة و من مبالغ ماليّة يزيدونها على ثمن ما يتناولون ومن عطايا مختلفة أخرى.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-3-

السّاعات الأولى بالحانة هادئة جدّا. الزّبائن قليلون وما شرعوا في تناوله لا يسلمهم بعد إلى حالات السّكر والتّهريج والفوضى. السّاعات الأولى هي السّاعات التي يجد فيها رباعيّ البنات الفرص ملائمـة للحديث إلى زبـائنهنّ وملاطفتهم وضمّهم وتقبيلهم وتبادل الحديث معهم حول أمور شتّى واستلام هداياهم الصّغيرة المختلفة.

السّاعات الأولى هي ساعات الصّفاء الصّافي بين الفتيات وحرفائهنّ. صفاء لا يدوم إلاّ وقتا قليلا ثمّ يأخذ في التّلاشي شيئا فشيئا بتكاثر القادمين إلى الحانة وباشتغال الخمرة في الرّؤوس وبكثرة الهراء واللّغط والكلام الذي يظنّ السّكارى أنّ مخاطبيهم يسمعونه و يفهمونه في حين أنّ الجميع يتظاهر بالسّماع دون أن يعي شيئا.

وضعت فاتن على طاولة ثلاثة من زبائنها ستّ قوارير جعّة باردة شديدة البرودة و تبادلت مع الجماعة السّلام و الحديث عن الأحوال ثمّ انسحبت مسرعة و ذهبت تقف وراء المضرب مادّة عينيها إلى باب الدّخول ... سيدخل ... لابدّ أنّه سيجيء اللّحظة... الآن سيأتي... واحد ... إثنان ... ثلاثة ... قد يكـون الرّابع... أدخلت يدهـا في جيبها و أخرجت هاتفها الجوّال ... الهاتف نفسه الذي أهداه إيّاها بمناسبة رأس السنة الميلاديّة. قرأت بلمحة عابرة وجه الآلة بحثا عن أيّ أثر لأيّ اتصال أو أيّة إرساليّة... هو عوّدها أن يعلمها مسبقا بأنّه قادم إليها... فكّرت أن تبادر هي بالاتّصال ، أن تكتب له : " لماذا تأخّرت عنّي؟ " تردّدت قليلا ثمّ شرعت في الكتابة، و لكنّ حريفا ناداها بعد الكلمة

الأولى فأعادت هاتفها إلى مكانه وأسرعت تستقبله وتسأله عن طلباته قبل أن تتحوّل إلى طاولة الثّلاثة تفتح لهم قوارير باردة أخرى.

جمعتها مساحة ما وراء الكونتوار بزميلتها ليلى التي سألتها و هي تشعل لها سيجارة وتدسّ رأسها الأحمر بين شفتيها الحمراوين:

- تبدين على غير عادتك تائهة ، مرتبكة. هل أنت متعبة؟
- حاتم... انتظرته أمس و لم يأت ... أخشى أن لا يجيء اليوم.

دخل زبائن آخرون و توزّعوا على طاولات المحلّ فأسرعت كلّ من الفتاتين إلى جماعتها تحيّيهم وترحّب بهم وتوزّع قبلات مهنيّة على بعضهم ثمّ تسرع في تقديم طلباتهم..

كانتا بين الطّلب و الطّلب تلتقيان وراء الكونتوار فتتبادلان السّجائر وتلتهمان شيئا ممّا جاد به على إحداهما أو كلتيهما واحد من الحرفاء... تلتقيان فتتبادلان كلاما سريعا وضحكا خاطفا ولكنّهما لا تتبادلان النظرات. العيون يجب أن تظلّ معلّقة على الباب الكبير لمراقبة الدّاخلين والخارجين وعلى الطّاولات للتأكّد من مدى خلوّ القوارير من مائها، وعلى الحرفاء لتلبية إشاراتهم التي عادة ما تكون طلبا لقوارير جديدة.

دخل زبونان آخران فأسرعت إليهما الفتاتان مرحّبتين.

قال الأوّل لليلى:

- أربعة. اثنتان لي واثنتان لك.

فشكرته بقبلتين ثمّ لوّحت لرفيق و هي تتّجه إليه بأربعة أصابع.

و قال الثّاني لفاتن:

- واحدة MAGON.

و مدّ إليها علبتي سجائر MERIT.

أسرعت تضع شفتيها على شفتيه فالتقت الشّفاه الأربع لقاء خاطفا برقيّا لئن لم يخلّف في فاتن أيّ شعور فإنّه بثّ في نفس الزّبون فخرا وارتياحا جعلاه يحسّ أنّه أهمّ من كلّ من في الحانة وأكثرهم قبولا وحظّا ورجولة.

التقتا وراء الكونتوار ففتحت الأولى قارورتي جعّة مدّت إحداهما إلى الثّانية وأخرجت فاتن من جيبها علبتي سجائر دسّت إحداهما بين أصابع ليلى.

قرّبت ليلى شفتيها من فاتن ووشوشت لها في أذنها:

- تماسكي أعصابك و لا تتدفعي. هاو سي حاتم متاعك جاء.

حرّكت فاتن قارورتها في اتّجاه رفيق سامحة له باحتسائها وأطفأت بهدوء سيجارتها ثمّ رفعت رأسها في اتّجاه الصّالة فالتقت سريعا عيناهما... عيناها الزّرقاوان الواسعتان بعينيه السّوداوين الحالمتين. نزلت عيناه إلى صدرها المنفلت من الجاكتّة البيضاء الضّيّقة جدّا. ثمّ تحرّكتا في اتّجاه وسطها وظلّتا راسيتين هناك... واستقرّت العينان الزّرقاوان على الوجه الوسيم وشاربه الأسود العالي... نسيت نصيحة صاحبتها وافتعالها اللاّمبالاة وخفّت إليه.

عندما صارت على بعد خطوة منه استعادت بعض رصانتها. سلّمت عليه بحرارة ولم ترتم في صدره... نظرت في عينيه لائمة لا منهارة شوقا... سألته عن عائلته التي لا تعرف أحدا منها ولم تسأل عن حالته هو ولا عن سبب تأخّره... تسلّمت من يده قرطاسا ولم تنتظر أن يقول لها :

- هاك... إشويلي كبدتي و هاتيها، نأكلها معا...

قال الزّبائن الثّلاثة و كانوا على مقربة من الطّاولة التي آوى إليها حاتم:

- فاتن مشات تشوي في كبدة صاحبها.

و لجّوا في الضّحك.

تعرّف حاتم على فاتن منذ عشرة أشهر. يومها، طلبت منه أن يوصلها إلى "حانة الهناء" ... نهض من وراء المقود و فتح لها باب التّاكسي الخلفيّ... غمرت السّيّارة الصّفراء رائحة عطر ساحر... وغمرت نفس سائقها موجة جنون جميل. مدّ يده إلى زرّ آلة التّسجيل وأداره فخرج عليهما صوت شاعر الحبّ والمرأة:

ألا تجلسيـــن قليـلا ألا تجلسيـن

فإنّ القضيّة أكبر منّي وأكبر منك كما تعلمين

قالت له :

- ما أحلاه !

فردّ وقد فاجأه تعليقها:

- أنت أحلى.

كان يمكن أن يصل إلى "بار الهناء" في عشر دقائق و لكنّه ظلّ يسلك طرقا ملتوية ولم ينزلها إلاّ بعد نصف ساعة كامل ملأ خلاله عينيه السّوداوين الحالمتين من وجهها الأبيض الصّافي عبر نظره في المرآة العاكسة وملأ أنفه من عطرها المسكر وعرف منها أنّها حرّة لا زوج لها و أنّها أصيلة إحدى الأحياء الشّعبيّة في العاصمة وأنّها تشتغل وتقيم في حانة الهناء.

لم يكن في حياة حاتم قبل ذلك اليوم غير سيّارته الصّفراء ووالديه وإخوته ولكنّ ذلك اللّقاء وتلك الثّلاثين دقيقة بعثاه شخصا آخر. بعثاه شخصا يتردّد على حانة سي عبدالله ليشرب أنواع خمور لم يكن إلى حدّ ذلك السنّ يعرف لها طعما و ليتودّد إلى فاتن عبر الملاطفة و الهدايا... حاول بعد ذلك أن يرتدّ عن إيمانه بها و يجعل بينه وبين حبّه لها سدّا فما استقام السّدّ و لا وجدت الرّدة إليه سبيلا... وأصبح في حياته الجديدة ثالوث لا غنى له عنه : فاتن والسّيّارة الصّفراء مورد الخير والعائلة التي تنتظر منه الكثير.

الواحدة و الرّبع بعد منتصف اللّيل، صالة الحانة أصبحت خالية بعد أن لفظت آخر السّكارى، و سعاد وسعيدة كدأبهما ليلة بعد أخرى منكبّتان على مسح الأرضيّة وتنظيف الطّاولات وإفراغ منفضات السّجائر وإعادة القوارير الفارغة إلى صناديقها... السّاعة الثّانية صباحا، تصعد الإثنتان منهكتين... ترتميان على سريريهما... تتبادلان الشّكوى من التّعب وتتحاكيان نوادر الزّبائن و طرائفهم ثمّ تستسلمان لنوم كالموت لا تفيقان منه إلاّ ظهرا.

قالت سعيدة:

- أعجبني رقصك... كنت تتلوّين كحيّة و تطيرين كفراشة...
- قرّرت أن أرقص لمدّة أسبوع على الأقلّ.
- لماذا أسبوع على الأقلّ؟
- المبالغ الإضافيّة التي جنيتها من رقص اللّيلة مضروبة في سبع ليال يمكن أن تقرّبني من الثمن الذي سيحدّده طبيب الأسنان مقابل أن يعيد فم معتزّ إلى حالته الأولى.
- آه ، فهمت ... و لكن هل سينتظر معتزّ أسبوعا كاملا قبل أن يرمّم فمه؟
- لا. أفكّر أن أطلب غدا من سي عبدالله دفعة على الجراية أرسلها لأمّي حتّى تقدّمها بدورها دفعة أولى إلى الطّبيب.
- أرجو أن يوا...
- سيـ...وا.....غصبا...
- .....
- .....

عاودها وهي نائمة منظر الفم المفتوح عن آخره كغار عميق واللّسان متنقّلا تائها بين أطراف الفم الأحمر الفارغ يتحسّس منابت الأسنان... أفزعها

المنظر وأطار عنها النّوم. فتحت عينيها عن آخرهما، حدّقت بهما في ظلام الغرفة، أجالتهما في كلّ الاتّجاهات... فلم تلتقط بهما شيئا ينسيها مشهد فم معتزّ خاليا من أسنانه البيضاء اللاّمعة...

يجب أن أنام، قالت لنفسها، بل يجب أن أموت نوما حتّى أستطيع و على امتداد ليالي أخرى أن أُسْكِرَ حرفائي رقصا و أجعلهم دون تفكير و دون تردّد يدخلون أيديهم في جيوبهم و يدفعون لي ثمن رقصي علّني أستطيع أن أدفع ثمن أسنان معتزّ الذي لا شكّ أنّه عزل نفسه عن النّاس منتظرا أن أتدخّل لإنقاذه في أسرع وقت... عاودها الغضب عليه... تمنّت لو كان أمامها لتصيح في وجهه و تقول له:

- تستاهل... ها هي عاقبة التفرفيط متاعك... لو كان جيت تسوق بالسّياسة ما تطيحش...

و لكنّني قد أظلمه بتوجيهي اللّوم له هكذا كأنّه المسؤول الوحيد عمّا انتهى إليه.

- أنا اللّي نستاهل... آش شرّاني فيها هالموتور؟

ليس هذا مهمّا. أبي رحمة الله عليه كان يقول:" اللّوم بعد القضاء بدعة" و أمّي - الله يشفيها- تؤمن كثيرا بأنّه " لا ينفع حذر مع قدر".

بدأ غضبها يهدأ ... ولكنّها لم تستطع أن تنام. أخذتها ساعات اللّيل الأخيرة إلى ما قبل ولادة معتزّ و مجيئه إلى الدّنيا.

اكترى قبالة منزل والديها محلاّ للسّكنى استقرّ به وحده لا يزوره فيه زميل من زملائه ولا قريب من أقربائه ولا واحد من جيرانه. جمعتهما أزقّة الحيّ و دكاكينه جمع مصادفة قبل أن تصبح لقاءاتهما مقصودة و متعمّدة.

كان يتعمّد أن يمرّ و هو متّجه إلى مدرسة النّجاح حيث يشتغل معلّما أن يتوقّف أمام منزل والديها وكانت هي تتزيّن له كلّ عشيّة وتعترضه وهو قافل

إلى بيته فيتبادلان النّظرات والتّحايا... ثمّ هاما ببعضهما و تحوّلت تلك النّظرات الخاطفة وتلك اللّقاءات البرقيّة إلى ساعات حميميّة يقضّيانها في بيته حيث يقيم وحيدا... كانت تسترق نفسها من أمّها صباحا وتطير إليه... ثمّ أصبحت تدسّ لأمّها حبوبا منوّمة تذيبها في الشّاي و تخرج إليه فتقضي معه ردحا من اللّيل. أنسته التّعب الذي يلاقيه مع أطفاله الكثيرين وجوع غرائز الشّباب التي ليس كقوّتها قوّة وعائلته التي تركها في مدينته البعيدة بغرب الجنوب... ثمّ جاءته يوما ترتعش و ترتجف و تبكي و قالت له :

- لا تمتقع،
- هي كلمة عجلى
- إنّي لأشعر أنّني حبلى*

كأنّهما لم يكونا يدريان أنّ عاقبة تلك السّاعات المسروقة من ضحى النّهار وأواسط اللّيل ستكون لا محالة حملا... خافت هي أمّها و أهلها والجيران وخشي هو أهل الفتاة وكلام النّاس واسودّت في وجهه الدّنيا التي كانت باسمة... ظلّ يرتّب أموره ثلاثة أيّام وثلاث ليال ثمّ اختفى. ترك معتزّا في بطن أمّه ومضى... قيل لها بعد ذلك إنّه شوهد في بلد عربيّ... ثمّ نسيته ولم يعد يهمّها أن تصل إليها أخباره وربّت ابنها على أنّها أمّه و أبوه.

كانت إلى حدود ذلك الزّمن تعيش هانئة مع أمّها من جراية أبيها المتوفّى... ولكنّ مجيء معتزّ وقيامها مقام أبيه و أمّه في الآن نفسه دفعاها إلى البحث عن أيّ عمل... اشتغلت بائعة في عدّة دكاكين ومغازات واشتغلت حارزة في حمّام شعبيّ... واشتغلت معينة في بعض الدّيار الكبيرة... ولكنّها أدركت أنّها لن تجني من كلّ هذه الأعمال ما يكفل لها تربية ابنها و إعانة أمّها ، وأدركت أنّ بقاءها في ذلك الحيّ الشعبيّ بالعاصمة سيظلّ يذكّر الأهل

* من قصيدة " حبلى " لنزار القبّاني.

والجيران والآخرين بأنّها استسلمت ذات ربيع إلى معلّم أعزب أنجبت منه طفلا غير شرعيّ وأنّ ذلك المعلّم أفقده الخوف صوابه فترك عمله الذي طالما صبا إليه وصبت إليه عائلته وترك ابنه القادم بعد شهور وفرّ إلى بلد بعيد... ثم ألهته الدّنيا هناك فنسي وظيفته وابنه و محا من ذاكرته تماما تلك الشّهور التي قضاها أعزب في أحد الأحياء الشعبيّة بتونس العاصمة. آثرت سعاد أن تنسي النّاس خطيئتها ففرّت من الشّمال إلى الجنوب ومن أشغال كثيرة إلى شغل واحد ومن أمّها وولدها إلى سي عبدالله وفتيات الحانة والسّكارى.

سي عبدالله بشروطه الكثيرة وطلباته المجحفة أحيانا أهون مرّات ومرّات من أرباب العمل الذين ساقتها إليهم الحاجة في العاصمة. السّكارى بمشاكلهم التي لا تنتهي أقلّ خطرا وألما من سكّان الحيّ الذين لم يستطيعوا أن ينسوا أنّها بـاعت روحها بلا شـيء وأنجبت ولدا حراما والذين لن يصدّقوا أنّها قد تعيش دون أن تمارس بغاء علنيّا واضحا و مكشوفا.

تدرك سعاد أنّ في حيّها و الأحياء المجاورة وأماكن أخرى حدثت مآس أعوص... سرقات كبيرة و بغاء و خيانات موصوفة وعنف و تقتيل... ولكنّها لم تستطع أن تفهم لماذا وحدها لم يغفر لها أحد أنّها أخطأت- أو هكذا قالوا- و هي بعدُ فتاة في عنفوان المراهقة.

قالت يوما لآخر رجل اشتغلت في بيته:

- سي صالح، ابحث لي أرجوك عن أيّ عمل في مكان بعيد عن العاصمة. لم أعد أطيق أن أظلّ هنا... ولم يعد ما أجنيه من خدمة البيوت يكفيني لشيء.

فجاءها ردّه بعد يومين فقط. :

- هل تقبلين أن تكوني نادلة في بار كبير بإحدى مدن الجنوب البعيدة ؟

وقتها لم تستطع أن تحسم أمرها ولكنّ يومين من السّؤال والتّفكير أرسياها على الموافقة.

كانت تغفو وتصحو... تصحو ثمّ تغفو... تفكّر وتحلم و تتخيّل و تتذكّر وتغضب وتهدأ ... إلى أن تحرّك حذوها جوّالها. كان يحمل إليها إرساليّة من سي عبدالله : " الواحدة ظهرا موعدنا."

بمجرّد ما انتهت من قراءة هذه الكلمات الثّلاث كوّنت رقم أمّها وخاطبتها قائلة:

- سيصلك مبلغ من المال. سلّميه إلى الطّبيب ودعيه يشرع في إعادة فم معتزّ إلى حالته الأولى.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-5-

يقتضي أيّ نقص يطرأ على رباعي الحانة تقسيما أخر للعمل. تصبح الطّاولات موزّعة بين ثلاثة منهنّ في حالة تغيّب واحدة وبين اثنتين عندما تتغيّب اثنتان. وعادة ما يقتضي ذلك التّقسيم الظرفيّ توزيعا مختلفا لروّاد الحانة الذين يضطرّ بعضَهم اختفاءُ نادلته المفضّلة إلى اختيار جديد.

اللّيلة، توزّع الذين رغبوا في البقاء بين سعيدة وليلى اللّتين سيكون عليهما اقتسام مساحة المحلّ بالتّساوي من الحادية عشرة صباحا إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل... كلتاهما تدرك أنّ ذلك سيكون شاقّا وأنّ قيام اثنتين مقام أربعة في حانة تعجّ بالسّكارى أمر عسير ولكنّ ذلك الشّقاء وذلك العسر قد تنسيهما إيّاه عطايا الزّبائن التي ستكون أوفر من عطايا الأيّام العاديّة... نادلات الحانة لا يعوّلن كثيرا على جراياتهنّ فهي وإن كانت قارّة فإنّها وحدها لا تكفي لشيء... إنّهنّ مطالبات بتجديد و تنويع ملابسهنّ و ماكياجهنّ وعطرهنّ وهنّ مطالبات بالتّردّد على الحمّام وعلى محلاّت الحلاقة... وهنّ قبل ذلك مطالبات بالإنفاق على أسرهنّ... لسعاد معتزّ وجدّته، ولسعيدة والداها اللّذان لم يخرجا من الدّنيا بغيرها واللّذان أصبحا منذ انضمّت هي إلى فريق "حانة الهناء" لا يعوّلان على غيرها... ولفاتن ابنتها التي قبل خالها أن يضمّها إلى أسرته مقابل أن تدفع له أمّها التي هي شقيقته ثمن ذلك الإيواء كاملا لا ينقصه ملّيم أحمر. أمّا ليلى فلها مشاريعها... ليلى لا تثق بغير الدّينار... تحبّ المال حبّا جمّا وتسعى إليه بكلّ الوسائل والأساليب... تسعى إليه بالعمل وبالتّقشّف وبلسانها و بدنها وبكلّ ما أوتيت من حيل... ثمّ توزّعه بين دفاتر الادّخار

وشراء المجـوهرات وبناء وشراء المحلاّت... وليلى تصرّح دائما حتّى لزبائنها أنّ هذه المهنة لن تدوم لها ولا لغيرها... وأنّ مـا حباها به الله من فتنة آيل لا محالة إلـى الذّهاب وأنّ غوائـل الكبر والمرض والوحدة والدّهر لا يرّدها غير الملّيم الأبيض لليوم الأسود.

يحبّها زبائنها لصراحتها ولأشياء كثيرة أخرى ولكنّه لا أحد تعلّم منها قاعدة الملّيم الأبيض لليوم الأسود...

كلّ زبائنها يعيشون ليومهم ولا شيء سوى يومهم.

كلّ زبائنها يعيشون لساعاتهم لا يفكّرون في ما بعدها، للحظتهم لا يتجاوزونها لحظة أخرى إلى الأمام. كلّهم يفكّرون في اليوم الأسود الذي تخشاه معبودتهم و تقرأ له ألف حساب ولا أحد منهم فكّر أنّ يوما أسود قد يعترض حياته هو.

كلّهنّ يحببن المال ويسعين إليـه ولكن لكلّ منهنّ أسبـابها و دوافعها... كلّهنّ يحببن الهدايا والعطايا... ولكلّ منهنّ أساليبها وطرقها... كلّهنّ مستعدّات للتّضحية بكلّ شيء من اجل أن تظلّ جيوبهنّ عامرة ولكلّ منهنّ فلسفتها التي قد لا تشبه أيّ فلسفة أخرى...

لسعاد الإغراء والرّقص ولسعيدة الصّوت العذب الذي يحلو للسّكارى أن يطربوا به كلّما بدأ مفعول الكحول يسري في دمائهم ولليلى نكـاتها وضحكـاتها وصـراحتها ولفاتن نظرات عينيها الزّرقاوين الواسعتين وصفاء وجهها الشّبيه بقطعة بلّور مصقولة بعناية مركّزة ولثلاثتهنّ أبدانهنّ التي لا يقدّمنها لأيّ كان و بأيّ ثمن ... و لأربعتهنّ فتنة الجمال و الاعتدال والطّراوة والإغراء.

يدرك سي عبدالله أن لفتياته علاقات تتوطّد حينا و تتهاوى حينا آخر مع بعض زوّار الحـانة ومع آخرين، تتقص وتزداد، تذبل وتورق، تموت وتحيا، بل

إنّه يكاد يعرف عن كلّ واحدة من موظّفاته كلّ كبيرة و صغيرة... يعرف أين تقضي كلّ واحدة يوم راحتها الأسبوعيّة ويعرف من يحبّ منهنّ كل زبون وإلى من تميل كل واحدة من الفتيات...

يعرف أوضاعهنّ الماديّة و ظروفهنّ العائليّة و يعرف سي عبدالله حتّى موعد الدّورة الشّهريّة لكلّ منهنّ.

و يعرف سي عبدالله أنّ علاقات فتياته لا يحركّها في الغالب الحبّ و لا حتّى الإعجاب و إنّما تحرّكها الحاجة إلى المال والرّغبة فيه...

ذلك كلّه لا يزعج "عبودة" ولا يبعثر هدوءه ولا يبعث فيه الغيرة أو يحرّك فيه الغضب عليهنّ.

عبودة يرى أنّ في تصرّف فتياته حكمة لا تضاهيها حكمة فهنّ بذلك يحافظن على المحلّ وعلى إيراداته ما دمن محافظات على حرفائه ملبّيات لرغباتهم المختلفة... عبودة يؤمن بأنّ الحريف هو الملك وأنّ حانته هذه لا تساوي شيئا دون هؤلاء الزّبائن الذين لا يأتون قطعا من أجل الشّراب وحده بل من أجل شراب تقدّمه نادلة مستعدّة لأن تتجاوز تلك الخدمة إلى توفير خدمات أخرى... بل لعلّ سي عبدالله لم يعد مرتاحا كثيرا هذه الأيّام لفتاته فاتن لأنّه يعتقد أنّ الانصراف إلى حريف بعينه أقلّ نفعا من إرضاء جمع من الحرفاء... لذلك فسي عبدالله بين أمرين لا ثالث لهما : إمّا أن ينجح في إتلاف علاقة نادلته الجميلة بذلك التاكسيست المجنون بها أو أن يستبدلها بأخرى.

هو يعلم أنّ لفاتن أبوين أرهقهما الكبر و بنتا تعيش لاجئة و لكنّه لم يفهم من أين سيعيش كلّ هؤلاء في حالة زواجها بالتّاكسيست الذي سيشترط عليها الانقطاع عن العمل بمجرّد ما يحصل على موافقة أهله. التاكسيست مهما تكن درجة عشقه لها لن يتكفّل باستمرار بالإنفاق على والدين لم ينجباه وبنت لم ينجبها ومدّخرات فاتن لا تكفي لتأمين ثلاث حيوات كاملة.

لذلك فسي عبدالله يفكّر جدّيًا في إقناعها بالعدول عن الزّواج حتّى لا تخلص لغير زبائن الحانة و حتّى لا يضطرّ لاستبدالها بفتاة أخرى.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-6-

العاشرة صباحا، عندما جذبت سعاد وراءها الباب، كانت فاتن قد سبقتها إلى الخارج بخطوة واحدة. تبادلتا الابتسام والتّحيّة ومشتا جنبا إلى جنب خارج مبنى الحانة والغرف التي فوقها. مشتا كأنّهما على اتّفاق مسبق بالوجهة التي يقصدانها. لا واحدة منهما سألت الأخرى:" إلـى أين تذهبيـن؟" ولكنّ الأقدام الأربعة ظلّت تمشي في اتّجاه واحد وعلى نسق واحد إلى أن اختفت صاحبتاها وراء باب"حمّام الأنس" الواقع على يمين الحانة بنصف كيلومتر. نزعتا عنهما أثوابهما و استلقتا على مصطبتين متلاصقتين تحت سحب من الأدخنة الحارّة في انتظار أن يصبح لحمهما طريّا قابلا للتّدليك.

نتـاوبت عليهما بعد سـاعة من التّعرّض للبخـار الحامـي "طيّابة" اعتـاداها و اعتادتهما.

قالت لفاتن و هي تدخل في الكاسة أصابع يدها اليمنى و تهمّ بكتفيها :

- فمّة واحد ميت عليك. قالّي كلّميهالي.
- آش يحبّ؟
- يحبّ ياخذك.

للحظة بدا لفاتن أنّ كلام الحارزة فخّ ينصبه لها حاتم التّاكسيست ليتأكّد من بعيد من مدى خلوّ حياتها من رجال غيره ومن مدى إيمانها به شريكا مفترضا لحياتها.

- قوليلو راهي مخطوبة. باهي؟

لم تزد الحارزة على ذلك حرفا... ظلّت منكبّة على حكّ لحم زبونتها في صمت مطبق إلى أن تحوّلت بعدها إلى سعاد. مدّدتها وظلّت على امتداد نصف ساعة كامل تدلّكها و تتظّفها و تقلّبها إلى أن استوت أخيرا قطعة من بلّور . اقتربت منها أكثر وقالت لها كالهامسة:

- سعاد، الوصوء أمانة.
- آشكونو اللّي وصّاك؟
- مولى الحمّام.* قالك اطلبي اللّي تحبّي و ارضي عليّ حتّى مريرة واحدة.

دفعتا ثمن حمّامهما و أجرة طيّابتهما و لم تنس سعاد أن تدسّ بين يدي ساعية الخير بطاقة عليها أرقامها.

لا واحدة منهما سألت الأخرى " إلى أين تمضين؟" و لكنّ الأقدام الأربعة التي لا تزال طريّة نديّة سارت في اتّجاه واحد إلى أن اختفت وراء ستار قاعة الحلاّقة القريبة من حمّام الأنس.

السّاعة الواحدة ظهرا، جمعتهما الحانة صدفة، معا راقبا ما تحويه الثّلاّجات وما يختبئ في المخزن الخلفيّ... و تجوّلا وراء الكونتوار... و تبـادلا السّلام مع رفيـق ، وتحدّثا حول ظروف العمل والمشاكل اليوميّة مع كلّ من سعيدة و ليلى... ثمّ معا أيضا، وضعا قدميهما على الدّرجات المؤدّية إلى الغرف العلويّة... يد كلّ منهما كانت تمسك قفّة تبدو ثقيلة... و خطوات كلّ منهما كانت تحاول أن تكون أسرع و أخفّ... ولكنّهما أنهيا الدّرجات في وقت واحد و وقف كلّ منهما أمام الغرفة التي يريد ومدّ يده يطرق الباب.

أطلّت سعاد فأمسكت قفّة سي عبدالله بيد وجذبت صاحبها إلى الدّاخل باليد الأخرى.

---

* صاحب الحمّام.

و أطلّت فاتن فمدّت وجهها قبل يديها و طبعت على خدّ سي منصور ابن صاحب الحانة قبلة فرح و ترحيب.

ثمّ أغلق البابان.

عندما وصلت إلى سمعها خطوات سي منصور ترتقي السّلّم و طرقاته على باب غرفتها سمعت فاتن معهما صوتا فيها يعلو و يحتجّ:

- انتهى حقّك في مجاراة الرّجال مذ وعدك التّاكسيست بزواج قريب. أنت مقدمة علـى خيـانة و عواقب الخيانة وخيمة دائما.

و لكنّها استطاعت أن تقنع الصّوت بأنّه مازالت أمامها فسحة يجب أن لا تحرم نفسها منها وأنّ ما يربطها بالتّاكسيست مجرّد كلام في كلام وأنّها ستكون له وحده يوم يربط بينهما شيء أقوى من الكلام وأنّها في حاجة في مثل هذا الظّرف إلى سي منصور لأنّه الأقدر على تلبية كثير من طلباتها.

أمّا سعاد فعندما أحسّت أنّ سي عبد الله على وشك المجيء تذكّرت أنّ تجاربها مع الرّجال علّمتها أنّه عليها أن تقدّم طلباتها قبل أن تقدّم أيّ شيء آخر. تطلب فتحصل على ما تريد أو على وعد بما تريد فتهب صاحبها ما يريد وأكثـر ممّا يريد... لذلك فمـا إن انتهت وسـي عبد الله من الغداء واغتسلا حتّى أجهشت بالبكاء... ذلك البكاء أثار في سي عبد الله الاهتمام و الإشفاق وجعله ينصرف تماما إلى الإنصات إلى مأساة معتزّ.

أعادت له رواية أمّها مضيفة إليها كثيرا من التّفاصيل المثيرة... روتها له بدء من إلحاح ابنها عليها و اضطرارها إلى توفير الدّرّاجة مرورا بسقوطه وسقوط أسنانه وصولا إلى الحلم المزعج الذي يلازمها والذي يظهر فيه فم ابنها الأوحد غارا عميقا ليس فيه غير لحمة حمراء تجوب أطرافه تائهة... وقبل أن يمدّ يده عليها، مدّها إلى جيب سرواله الخلفيّ المعلّق وراء باب الغرفة

و مدّ منه إليها كمشة أوراق جعلت "سعاد" ترقص له وتغنّي و تتمدّد و تتلوّى إلى حدود الواحدة صباحا.

منذ بلغ الستّين، أصبح عبودة يستعين على حبّه المفرط للنّساء بالحبوب الزّرقاء التي يعتبرها هو وجمع من أصحابه أهمّ اختراع دوائيّ توصّل إليه المكتشفون في السّنوات الأخيرة... ولكثرة تعويله عليها، لم تعد له ثقة في أنه يمكن أن ينجح في أيّ اتّصال دونها... الحبّة الزّرقاء تصاحبه أينما حلّ، في منزله في خزانة سرّيّة مع أمواله وشيكاته ووثائقه وفي جيبه بين طوايا أوراقه وفي مكان مّا داخل السّيّارة في حالات السّفر ... تناهى إليه خبر رواجها في بلد مجاور فترك كلّ شيء وسافر إليها و سأل عنها ولم يعد من هناك إلاّ بعدما اشتراها وجرّب مفعولها في أحد أنزال ذلك البلد... في بنات ممّن يقمن بالنّزل بشكل مستمرّ يصطدن النّزلاء الجدد و يذهبن إلى من يوقعنهم منهم إلى غرفهم ومنهنّ من ترابط أمام النّزل وفي مقهاه وحانته أو في باحة الاستقبال تصطاد الحرفاء ثمّ يرافقنهم إلى ديارهنّ... ثمّ أصبح يتكفّل بجلب ذلك الدّواء السّحريّ بانتظام و بكمّيات كافية صاحب له يشتغل بالتّجارة و بتوريد السّلع من ذلك البلد الشّقيق... وصادف مرّة أن جمعته و أصدقاءه سهرة مع رفيق شباب لهم عائد من فرنسا فوزّع عليهم حبّات جلبها معه من هناك.

كانت من بين نادلات الحانة واحدة دفع عبودة الكثير من أجل أن يضمّها إلى طاقمه آنذاك... عمرها دون العشرين... وجمالها مالا عين رأت... قال سي عبد الله في نفسه : " هذه الحبّة الفرنسيّة ما تستحقّها كان هي . يجب أن أختبر نجاعة هذه الحبّة في هذه الشّقراء" ، و منذ تلك اللّيلة و سي عبد الله يقول كلّما دار الحديث حول الحبوب الزّرقاء أو كلّما لم يعجبه أداؤه مع واحدة مّا:

- دواء فرانسا وحده . ما كيفو شي.

كان عبودة يفخر بين اصحابه بأنّه خال من كلّ الأمراض وأنّه ليس مصابا رغم سنّه بالسّكّري والضّغط وأنّ سلامة قلبه واعتدال دمه هو ما أتاح له أن يستعين بالفياغرا دونما خوف من عواقبها.

" ما أحلاه الضّعف، كان عبد الله يقول لأصحابه ، الضّعف أمان من الأمراض. انظروا إليّ : عظام و لحم قليل و لا شحم و للّه الحمد."

ارتبك سي عبد الله وبان عليه الاضطراب بعدما نهض من تحت سعاد وفتّش في كلّ جيوبه فلم يعثر على أيّ شيء أزرق... فكّر في العودة إلى بيته لجلب دوائه ولكنّ "سعاد" احتضنته من الخلف ومدّت إليه حبّة سرعان ما بعث بها إلى دورته الدّمويّة دون حتّى أن يسأل عن مصدرها ولا حتّى لماذا تحتفظ صاحبته بمثل هذا الدّواء. مدّت إليه كوب ماء بارد فابتلع الحبّة مبتهجا. خيّل إليه أنّه يسمع وقع ارتطامها بدماء عروقه و هسيس امتصاص الدّماء لمكوّناتها العجيبة ثمّ ما لبث أن بدأ يشاهد سحرها عندما أخذ لحمه الميّت يبعث أمامه و أمام صاحبته حيّا.

تناهى إلى سمعيهما أزير سرير فاتن في الغرفة الملاصقة ثمّ غطّى على صوت السّرير ضحك عال وقهقهات مرتفعة ثمّ غطّى صوت سريرهما وزفيرهما على صوت التّلفزة أمامهما وعلى كلّ الأصوات القادمة من وراء الجدران.

salehymabrouki@gmail.com

-7-

لليلى جدول أحلام مكتظّ جدّا...

و جدول أعمال أكثر منه اكتظاظا...

هي تدرك أنّ طموحاتها عريضة لا حدّ لها...ولكنهّا شرعيّة ليس في شرعيّتها شكّ ولا اختلاف... وهي تدرك أيضا أنّ الأعمال سبيل إلى تحقيق الأحلام. لذلك يقول عنها الذين يعرفونها جيّدا وتقول هي عن نفسها إنّها امرأة عمليّة جدّا، لا تؤجّل عمل الآن إلى بعد حين.

وليلى تربط دائما بين جدول احتياجاتها وجدول أعمالها... تشتغل ليلا نهارا عندما تكون أمامها فرصة شراء محلّ تريد أن تتقضّ عليه... أو قطعة مجوهرات لم يعد لها عليها صبر... ولكنّها تشتغل أحيانا باعتدال عندما يتعلّق الأمر بمجرّد الادّخار.

الهاتف الذي تلقّته البارحة اضطرّها إلى برمجة أسبـوع مغلق مليء بالمواعيـد و اضطرّها إلى شطب مواعيد سبق أن حدّدتها وتعويضها بأخرى هي على يقين أنّها ستدرّ أرباحا أكثر. الموظّفون حتّى الذين يقولون منهم إنّهم كبار ليس الآن وقتهم. ليسوا هم المناسبين لإعانتها على شراء محلّ... الظّرف الآن دقيق جدّا... الظّرف يتطلّب كبار التّجّار وأثرياء المدينة... وعمّال الخارج... أمّا جماعة الجرايات الشّهريّة وأصحاب الشركات الصّغرى وصغار التّجّار فدعهم ينتظرون. أولئك في نظر ليلى متروكون لملء فراغات الجداول القادمة.

البارحة خاطبها أحد سماسرة مدينة ساحليّة تعشقها وتفضّلها على كلّ المدن الأخرى وأخبرها أنّ محلاّ يمكن أن يكون قاعة حلاقة وتجميل و فساتين أفراح يقع في شارع كبير يـُعْرَض للبيع و يثير شهيّة كثيرين و كثيرات.

أجرت ليلى جملة اتّصالات سألت خلالها عن أسعار المحلاّت وعن السّعر التقريبيّ للمحلّ المعروض وعن مردوده الافتراضيّ في حالة تسويغه وعن مردوده في حالة الانتصاب به وعن مردوده في حالة تخصيصه لكراء فساتين الأفراح و تعيين واحدة تقوم مقامها فيه... ثمّ راجعت حساباتها... وبدأت في ضبط جدول أعمال أسبوع قابل للتّمطيط.

يطمئن ليلى أمران: أوّلهما أنّها خرجت للتوّ من أيّام مرضها الشّهريّ وثانيهما أنّ لديها على قائمة الانتظار و الطّلب من ينتظرون إشـارة منها. لذلك فترتيب المـواعيد و ضبط الجدول لن يكون عسيرا بالتّأكيد.

الأربعاء

ستنزل إلى قاعة الحانة في توقيتها الاعتياديّ. ستنتهز فرصة تناقص الطّلبات لتلتهم غداءها رفقة فـاتن ورفيـق و ستستمـرّ في تلبية رغبات زبائنها إلى حدود العاشرة و النّصف. العـاشرة و النّصف بالضّبط ستقف أمام رفيق الذي سيطالبها بمبلغ محدّد هو ثمن ما قبضته من الزّبائن مقابل الزّجاجات التي وزّعتها... ستخرج من حافظة نقودها المربوطة حول وسطها كلّ ما تجمّع فيها... ستمدّه بما طلب ثمّ تستبقي المبلغ الزّائد والذي هو جملة العطايا والهبات التي تفضّل بها الحرفاء ... ستخطو خطوتين ثمّ تعود إلى حيث كانت واقفة : تدخل يدها فـي حافظتها ، تخرج منها مـا تيسّر... وتمدّه لرفيق ثمّ تنسحب نحو غرفتها... ستستحمّ بسرعة و تصفّف شعرها بسرعة أكبر ثمّ تضع ماكياجها

وتغيّر ملابسها وتتناول هاتفها الجوّال... تخبر صفوان أنّها جاهزة... تأخذ حقيبة يدها ... وتنزل من الباب الخلفيّ فتلفي في انتظارها سيّارته...

ستخبره منذ البداية أنّه ليس سهلا أن تشتغل من الحادية عشرة صباحا إلى الحادية عشرة ليلا ثمّ تترك نومها وراحتها لتقضي بقيّة اللّيل مع رجل وستقول أيضا و هي تدرك أنّها تكذب لا محالة أنّه لولا يقينها برجولته وكرمه ما قبلت أصلا أن تلبّي طلبه الذي ألحّ عليه مرارا... ثمّ ستصارحه بأنّها في حاجة أكيدة إلى مبلغ من المال تأخذه منه على سبيل الاقتراض دون أن تنسى التّأكيد على أنّها لا تتجرّأ و تطلب مالا من أيّ كان. ولن تخرج من عنده إلاّ بالمبلغ في حقيبتها و ستلحّ عليه في مسألة جدولة ذلك الدّين إلى أن يشعر بالخجل أو بالغضب و يصرّح بأنّه يقدّم المبلغ عربون ودّ... ثمّ ستجعل صفوان يعيدها إلى غرفتها قبل الفجر حتّى تستطيع أن تهمد قليلا قبل أن يداهمها النّهار الجديد.

الخميس

بعد صفوان، الموزّع الأكبر للدّجاج و البيض في كلّ المدينة و قراها، سيكون يوم الخميس يوم الحاج محمّد الطّاهر صاحب مغازة بيع الأثاث الرّفيع المنتصبة قبالة حانة سي عبد الله... قبل أن يؤدّي مناسك الفريضة الخامسة لم يهتمّ بها سي محمّد الطّاهر ولم يعرها أيّ انتباه... شاهدته جالسا أمام مغازته أكثر من مرّة، هو أيضا رآها تدخل الحانة وتخرج منها مرّات ومرّات، بل إنّها زارت مغازته في مناسبتين قلّبت فيهما أثاثها وسألت عن أثمانه... كان صاحب المغازة يتمتم بتسابيحه غاضّا كلّ جوارحه عنها... و لكنّ الحاج محمّد

الطّاهر انقلب انقلابا سريعا بعدما أدّى فريضته وعاد من أرض المناسك سالما... أصبح يترصّدها داخلة وخارجة ولم تدر كيف وصل إليه رقم هاتفها فكلّمها عارضا عليها أن تزور مغازته... ثمّ عارضا عليها أن يسافرا مرّة بعيدا عن أعين النّاس ولـو يوما و ليلة مغريا إيّاها بثمين الأثاث وهدايا وما تحتاجه من المال...

ستكلّمه وهي تملأ خانات البرنامج المغلق و ستقول له :

- اسمع يا حاج، أحنا محسوب جيران والجار وصّى عليه النّبيّ... والله ما نجّمت ننساك وما حبّيت نحقّرك.

ستحسّ أنّه جنّ. أنّه لا يصدّق سمعه. أنّ الحدّ بين الواقع و اللاّواقع سقط تماما فلم يعد يدري أحقّ ما يسمع أم خيال. سيقرص خدّيه ليتأكّد أنّ التي تكلّمه ليلى لا امرأة حلم.

ستنتهز فرصة جنونه لتقول له :

- حاج ، أمامي هذه الأيّام فرصة لشراء قاعة حلاقة وما عندي قد لا يكفي لإرضاء صاحبها.

ولن يتردّد الحاج محمّد الطّاهر كثيرا. سيقول لها :

- سأمدّك بشيك عليه مبلغ محترم و سأساهم معك في تأثيث قاعتك.

ستذهب إليه بعد الحادية عشرة ليلا بقليل... ستعبر الشّارع الفاصل بين حانة الهناء وموبيليا السّعادة... ستجد الباب كالمفتوح وستلفي وراءه الحاج في انتظارها. سيقضيان بقيّة اللّيل في أحضان إحدى بيوت النّوم الجديدة. وستؤوب إلى غرفتها مع الثّانية صباحا وفي جيبها شيك محترم ووعد صريح بتأثيث القاعة... وأشياء أخرى.

الجمعة

جرّبته قبل أن تضعه في برنامجها الاستعجاليّ هذا فشدّتها إليه ثلاث خصال، أولاها أنّه مقتدر على دفع مبالغ محترمة وثانيها أنّه لا يستبقيها عنده أكثر من ساعة واحدة يشترطها نهارا لخوفه الشّديد من زوجته ومن العودة إليها آخر اللّيل، و ثالثها أنّه لا يستعمل معها سوى شفتيه و أصابعه، أمّا ما عداهما فغير قابل للاستجابة والاستثارة. ستلتقيه مع العاشرة صباحا وتظلّ تحت تصرّف شفتيه وأصابعه إلى حدود الحادية عشرة مقابل مبلغ لا شكّ أنّه سيكون محترما.

صبيحتها، قال لها كالمعتذر:

- أرجوك يا ليلى. لا تظنّي بي العجز أو ما شابهه. رجاء ، فأنا رجل مقتدر سليم معافى غير أنّي أموت تماما وأفقد اقتداري مع غير زوجتي. اللّعينة. لا أدري ما فعلت بي... علاقتها مع السّحرة والنّفّاثات في العقد وطيدة جدّا... ويبدو أنّ فعلهم فيّ كان نافذا إلى درجة أنّني لم أفلح في علاجه وتجاوزه ولكنّي نكاية فيها وفي السّحرة الذين استعانت بهم عليّ لن أتوب عن النّساء حتّى وأنا لا أملك غير أصابعي و أسناني.
- " تلك المرّة، فوجئت بحالته وأشفقت كثيرا عليه من عجزه ومن زوجته . هذه المرّة ، أقسم أن أدعه يفلح... لو أفلح ، سيكون الثّمن باهضا."

تعرّفت ليلى على الدّكتور رضوان يوم اضطرّها زكام شديد إلى زيارته في عيادته الخاصّة. مذ وقفت قبالته أحسّ أنّه هو المريض وأنّ من أمامه طبيبة جاءت تداويه... أسرع يقف ويقول لها كلمات مبعثرة لا معنى لها تحيّة وترحيبا ثمّ سألها عمّا تشكو وأخذ يفحصها كما يفحص تاجر

مجوهرات قطعة ذهب ... و ليستبقيها أكثر وقت ممكن معه، حرّر الوصفة و كلّف موظّفة الاستقبال بالنّزول لشراء الدّواء من الصيدليّة.

قال لها :

- معلوم الفحص وتكاليف الدّواء هديّة بسيطة منّي إليك. عربون تعارفنا...

ثمّ مدّ إليها بطاقة عليها أرقامه وأضاف:

- أنا في الخدمة دائما.

أحسّت أنّه أفحمها بأدبه و كرمه فقالت دون أن تدري :

- و أنا أيضا.

و مدّت إليه بطاقة عليها خمسة أرقام.

السّبت

رجل السّبت هذا لم تسع إليه ليلى قبل اليوم ولم يربط بينها و بينه سوى اتّصال يتيم. هو أحد عشّاق زميلتها فاتن المتيّمين ولكن حبّه لفاتن لم يمنعه من أن يتوسّل إليها مرارا طالبا أن تتوسّط له فيها مقابل ما تشتهيان.

- حبّي يحبّ يسلّم عليك.

ووضعت الجهاز بين شفتيه و أذنيه.

تبادلت معه سلاما عاديّا جدّا وتمنّيا لبعضهما ليلة سعيدة ثمّ استعادت فاتن هاتفها فشكرت صاحبتها وتمنّت لها نوما لذيذا... بعدها توسّلت فاتن إلى صديقتها لتنيل الرّجل ما يشتهي ولو مرّة وحيدة فوعدتها خيرا. هكذا هما أو هكذا هنّ. لكلّ واحدة عشّاقها ولكنّ السّهر على راحة العشيق أو الحريف يتعدّى قضاء أوقات مرح معه إلى البحث له عن فرص مرح أخرى مع واحدة أخرى. و نادلات حانة سي عبدالله لا يجدن حرجا في تأمين هذا النّوع من

الوساطات ما دامت مكافأة الخدمة تصبح مضاعفة. وغالبا ما لا تستطيع واحدة منهنّ رفض وساطة إحدى صاحباتها لا فقط لأنّها فرصة لمبلغ ماليّ جديد و لا لأنّها فرصة لحريف قد يكون مذاقه أحلى وإنّما ببساطة لأنّ من ترفض الوساطة لن يكون بوسعها أن تتوسّط لواحد من زبائنها إذا ما ألحّ في اشتهاء وطلب إحدى الأخريات.

ستقول لصديقتها :

- نزولا عند طلبك الذي لا أستطيع له ردّا، أخبري صاحبك أنّني سأكون تحت تصرّفه ليلة الأحد.

ستضمّهما سيّارة الـ MEGANE السّوداء و تطير بهما إلى دار يملكها على مسافة ثلاثين كيلومترا في مدينة مجاورة.

ستقول له بمجرّد ما تخطو الميقان خطواتها الأولى.

- كنت سأعتذر عن المجيء إليك و لكنّي قرّرت أخيرا أن أحترم كلمتي وأحافظ على وعدي بالحضور إليك.
- لعلّ المانع خير.
- عثرت على قاعة حلاقة معروضة للبيع... موقعها والمبلغ المطلوب فيها مغريان، لذلك كنت سأسافر إلى العاصمة لأتدبّر بالاقتراض ما يكمّل المبلغ الذي أدّخره حتّى لا تفوتني الفرصة.

لن يفكّر سي محمود صاحب شركات الموادّ الغذائيّة كثيرا. سيقول لها وهو يحيط بذراعيه كتفيها و يختطف منها و السّيّارة تقترب من مدخل المدينة قبلة:

- لا عليك . أنا سأساعدك . ولن أترك الفرصة تفلت منك.

ستردّ على قبلته بقبلة وعند وصولهما ستردّ على كرمه بكرم يسكره حتّى أنّه في غمرة جنونه بها سيخبرها أنّه سيتخلّى نهائيّا عن زميلتها فاتن إن

هي قبلت أن تكون صاحبته الخصوصيّة وسيذكّرها وهي تغادر السّيّارة لتصعد نحو غرفتها قائلا:

- فكّري في ما اقترحت عليك. أنا جادّ في ما أقول.

ستردّ عليه دون تفكير :

- سأفكّر.

الأحد

توقّفت سيّارة الأجرة وانفتح بابها الجانبيّ الكبير وخيوط الضّوء الأخيرة آخذة في التّلاشي شيئا فشيئا . فوانيس الشّوارع ولافتات الإشهار أعلنت أنّ المدينة دخلت في اللّيل و أنّ الظّلام قد أكل آخر أضواء النّهار.

التقطت أدباشها و ترجّلت خطوات قليلة... فاجأها ارتفاع درجة البرودة فأسرعت تلبس معطفها الذي كان إلى حدّ ذلك الوقت معلّقا على ذراعها. بعد ربع ساعة استطاعت أن تظفر بتاكسي شاغرة.

- إلى أين؟ سأل صاحب السّيّارة الصّفراء .
- إلى نزل محترم.

فهم التّاكسيست أنّها ليست من المدينة وأنّ المهمّ بالنّسبة إليها ليس معلوم الإقامة بل أن يكون النّزل مريحا.

تلك كانت أوّل مرّة تنزل فيها إلى هذه المدينة الجنوبيّة المترامية الأطراف. عندما حصل صاحب المطعم الذي اشتغلت فيه شهورا على عقد عمل بإحدى دول الخليج، اقترح عليها أن تذهب للعمل بحانة الهناء ومدّها بعنوان صاحبها وأوصاه بها خيرا فلم تتردّد كثيرا. المدينة بعيدة عن العاصمة ،

نعم ، و لكنّ ما تعرفه سماعا أنّ نساءها ، طيّبات و أنّ رجالها " رجال" ، معشرهم حلو وكرمهم لا يضاهى وهم لا يحبّون شيئا كالخمر و النّساء.

كان يمكن أن تذهب مباشرة إلى البار الذي أشار به عليها عرفها القديم حيث ستعمل و تقيم و لكنّها فضّلت أن تستقلّ غرفة في نزل محترم ثمّ تتّصل بالعرف الجديد في اليوم الموالي ، عندما وقفت في الصّباح أمام موظّف الاستقبال لإعادة مفتاح الغرفة، التقطتها عينا صاحب النّزل الذي جاء يؤدّي زيارته الصّباحيّة المعتادة. تحرّكت قدماه حتّى أوقفتاه أمامها. قدّم نفسه وعرض خدماته و دعاها إلى الإفطار.

كان ذلك منذ ستّة شهور وطوال كلّ هذه المدّة التي تلت ذلك اللّقاء، التقيا مرّة واحدة... لم يطلب منها أن تحضر إلى النّزل... ولم يخاطبها في شيء... كانت يومها خارجة من مبنى الحانة... تذكر أنّه كان يوم أحد... يوم راحتها الأسبوعيّة... وكان هو قادما بالصّدفة من الاتجاه المعاكس... رآها. رأته. توقّفت سيّارته وانفتح الباب ثمّ انطلقت السّيّارة من جديد في اتّجاه نزل الجنّة. تلك اللّيلة مازال مذاقها في ليلى منتشرا لا يمّحى... ذلك الرّجل... مازالت ذكرياتها القصيرة معه مبثوثة فيها لا تبرحها.

بمجرّد ما ستقول له :

- " أنا غاضبة جدّا لأنّك نسيتني" ، سيقضّي ساعة كاملة يعتذر ويقدّم مبرّرات اختفائه ويطلب منها أن تتمنّى عليه ما يرضيها عنه ثمّ يتّفقان على كامل يوم الأحد.

الإثنان

تزوّج "سي منصور" منذ عامين فتاة من أقاربه طلّقته إثرهما بمجرّد ما تأكّدت أنّه عاجز عن الإنجاب... إلى حدود ذلك الوقت كانت الحانة تعتمد على خدمات فتيان يخضعون قبل انتدابهم لاختبارات دقيقة و بحوث مكثّفة... ولكنّ منصورا الذي أصبح بعد طلاقه عازفا عن الزواج اقترح على أبيه أن يستبدلا الفتيان بفتيات... و بدأ ماراتون البحث و الاتّصال... جيء بفاتنة اسمها "تقّاحة" ضبطها رفيق بعد شهر واحد متلبّسة بالسّرقة فأطردت طردا شنيعا ولم يشفع لها جمالها و لا ما أسدته من خدمات لسي عبد الله و لا حتّى ذلك الاختبار الذي أجراه ليجرّب فيها مفعول حبّة فرنسا الزّرقاء... ثمّ جيء بفتاة أخرى فتبيّن منذ الأيّام الأولى أنّها أكثر إدمانا من زبائن الحانة واضطرّ عبودة لإنهاء عقدها قبل حتّى أن يجفّ حبره... ثمّ جاءت سعاد... ولحقت بها بعد أيّام سعيدة... وحلّت بعدهما فتاتان أختان لم تكفّا عن الخصام المفضوح منذ الأيّام الأولى... ثمّ جاءت فاتن، واكتمل الرّباعيّ بمقدم ليلى. تدرك ليلى أنّ سي منصور أميل إليها من الثّلاثة الأخريات وأكرم معها من جميع الحرفاء الآخرين وأقرب إليها من كلّ الرّجال الذين عرفتهم.

هذه اللّيلة لن تكون الأولى بينهما وليست الأولى في المزرعة. قبلها التقيا ليالي أخرى عرفت فيها ليلى مع سي منصور كرما لا يضاهى و عرف فيها ابن صاحبة الحانة لذّة نسائيّة لم يصادفها مع كلّ النّساء الأخريات.

الثلاثاء

هذا موعد ليس كالمواعيد الأخرى.

مع رجل ليس كالرّجال الآخرين.

رجل لن يأتيها بسيّارته إلى حيث هي.

رجل يشترط أن يلتقيا في النّزل الكبير الواقع في رأس المدينة.

ستجد في انتظارها غرفة حجزت باسمها.

ستصعد إليها... سيكون هو أيضا في غرفة ملاصقة لغرفتها ... وقتها لا فرق بين أن تذهب إليه أو يجيء إليها.

قال لها سي عبد الله يوم توسّط له فيها:

- أنصحك بأن لا تفكّري في مقابل ماديّ. هذا ليس رجل مبالغ ماليّة. استغلّيه في قضاء شؤون أخرى... في قضاء مصالح و مآرب كبرى.

يومها ، لم تطلب منه شيئا... ولم يقدّم لها هو سوى زجاجة عطر قال إنّه فاخر .

هذه المرّة ، لن تتردّ في أن تلحّ عليه أن يتدخّل لفائدتها في شراء محلّ الحلاقة المعروض للبيع في ذلك الشّارع الكبير في تلك المدينة السّاحليّة التي تعشقها . هي تدرك تمام الإدراك أنّه قادر على أن يجعل المنافسة في شرائه تضيق و الثّمن المطلوب غير مشطّ.

ألا يقولون: ينزع بالسّلطان ما لا ينزع بالقرآن.

-8-

مذ انضمّت إلى طاقم حانة سي عبد الله وهي تجهد نفسها في أن تتأقلم مع متطلّبات هذا العمل الجديد. تحاول أن تتعلّم كيف تتصرّف مع السّكارى... وكيف توفّق بين توزيع القوارير أثناء العمل وتلبية طلبات أخرى خارج وقت الحانة... وكيف توزّع نفسها بين ربّ العمل وابنه... إلى أن أطلّ على حياتها حاتم صاحب التّاكسي فشعرت أنّ انقلابا عميقا حدث فيها من الدّاخل... ثمّ أحسّت أنّه يمكنها هي الأخرى أن تعيش كجلّ نساء العالم : زوج و بيت واستقرار وراحة بال.

عاهدت التّاكسيست علـى أن تنقطع عن العمـل بمجرّد أن يخطبها من أهلها وعاهدت نفسها على أن ترغب عن كلّ الرّجـال بمجرّد ما يصير حاتم رجلها شرعـا وقانونا. ولكنّ ما يقلق "فاتن" أنّ حاتما لم يتوصّل إلى إقنـاع أهله... وعليها هي أن لا تظلّ كالمعلّقة تنتظر زواجا قد يأتي وقد لا يأتـي وتقوم بشغل لا تدري إن كان سيتواصل أم سينقطع. لسي عبد الله الحقّ في أن يلومها ويشكّ في إخلاصها ولها هي الأخرى الحقّ في أن ترنو إلى أمل البيت والرّاحة، فتتخلّص من هرج السّكارى من حولها وطمع الرّجال وأشباههم فيها.

أمس التففن حولها وحاولن إقناعها بالعدول عن هذا الأمل الكاذب الذي بعثر كلّ حياتها وجعلها تعيش انتظارا لا أفق له.

- نحن لسنا ضدّ مشروع الزّواج... ولكنّ الرّجل لم يتقدّم لخطبتك ولم يفعل شيئا سوى أنّه يجيء أحيانا ليبتلع بعض القوارير و يلتهم الكبد المشويّ ثم ينصرف... و يبدو أنّه ضعيف جدّا أمام أهله وذويه...
- لو كان مقتنعا تمام الاقتناع لكان قويّا فعلا ولفرض على أهله رأيه رغبته.
- سأقول لك شيئا آخر: قد يكتب لزيجات كهذه أن تتمّ و لكنّه غالبا مالا يكتب لها أن تنجـح. و رأيي أنّ " حانوت مسكّر و لا كرية مشومة".

لا تستطيع فاتن أن تنفي أنّهنّ أقنعنها أو كدن وأنّ فـي كلامهنّ صوابا كثيـرا ولكنّها صرّحت لهنّ أنّها أحبّته وأنّه أصبح صعبا أن تنساه أو تستبدله.

ضحكن . ثلاثتهنّ ضحكن في وقت واحد وقلن لها:

- مسألة الحبّ هذه لم نعد نصدّقها... أمّا النّسيان فتأكّدي أنّ مجرّد تفكيرك في أيّ شيء آخر سينسيك إيّاه.

قالت لهنّ مسلّمة:

- أرجو ذلك.

ثمّ قرّرت أن تضعه أمام فرصة قرار أخير.

ما الذي سيضيرني إن أنا عشت على نسق ليلى أجمع الملّيم الأبيض لليوم الأسود أو مثل سعاد أوزّع حياتي بين أهلي وعملي وملذّاتـي أو مثل سعيدة أعيش لنفســي و لوالديّ ولا أتذمّر ولا أشكو.

اليوم أحسم الأمر. إمّا أن يحدّد موعدا لخطبتي من أهلي ويرضي شروطي كاملة أو أن أحرّم عليه حتّى مجرّد دخول الحانة.

قالت له :

- اسمع. أنا أحببتك فعلا ولكنّك لم تفعل لي شيئا... وعدتنــي بالزّواج

فصدّقتك ولكنّك لم تتوصّل حتّى إلى إقناع أهلك بي. لا أريد أن أكون سببا في تعاستك. أرجوك، دعنا صديقين دون زواج.

ما قالته أربكه وفاجأه وتعتع أحلامه التي كانت تصوّرها له امرأته التي لا يمكن أن تكون لواحد غيره ولا أن تستقيم حياته بعيدا عنها .

صحيح أنّ مسألة إقناع والديه و إخوته معقّدة جدّا ولكن الأمل في موافقتهم لم يخب بعد.

قال لها:

- أمهليني مدّة أخرى.
- أمهلك يوما واحدا. سأنتظرك غدا مساء. إمّا أن تكون قد وصلت إلى حلّ ينهي انتظارنا وإمّا فلا داعي لقدومك إليّ أصلا.
- سترين، قال لها، غدا أعود لأخبرك بموعد الخطبة. يجب أن تنقطعي عن العمل بمجرّد أن أعود إليك غدا. سنسافر معا إلى أهلك لنتّفق هناك على كلّ شيء.

همّت بالفرح وهمّ بها وتعالت داخلها زغاريد لم تكن تحسب أنّها ستسمعها يوما فيها ولكنّ هاتفا نصحها بتأجيل ذلك الفرح أربعا و عشرين ساعة أخرى. أليس غدا لناظره قريب؟

في اللّيل ... ضمّتهنّ غرفة واحدة وران عليهنّ حزن كحزن الموت ... بقدر ما أحسسن بالسّعادة لأنّهنّ دفعنها إلى اتّخاذ موقف حاسم، ولأنّ موقفها ذاك سيضع حدّا للتّردّد والانتظار بقدر ما شعرن بلوعة الفراق و وحشة الفراغ الذي ستخلّفه.

ليلتها تناوبت عليهنّ أحاسيس شتّى... فرحن لفرحها المنتظر وابتأسن لفراقها القادم على عجل وأشفقن على أنفسهنّ من العمل الذي سيقتضي ريثما

تحلّ محلّها أخرى توزيعا جديدا وعلى ليلى التي لا تدري بمن ستجيئها بدلا عنها مشاورات عبد الله و ابنه منصور.

ليلتها غلبهنّ البكاء فنمن دامعات كأنّ التي ستفارقهنّ لن تذهب إلى فرح و زواج إنّما إلى ما يشبه الموت .

لا واحدة منهنّ أبلغت سي عبد الله و منصورا بالذي حدث.

لا واحدة منهنّ تجرّأت واستبقت الأحداث. كلهنّ بقين في انتظار مقدم التّاكسيست وهنّ لا يشككن في أنّه سيرفع التّحدّي ويفي بوعوده ويخلّص صاحبتهنّ من هرج السّكارى وروائح السّجائـر وفتح قوارير الخمور...

لم تكن وحدها في الانتظار. كلّهنّ كنّ ينتظرنه معها.

رفيق أيضا كان ينتظر معهنّ. عمّ مسعود صاحب إناء الفول المطبوخ كان ينتظر. هو أيضا شعر أنّ الأمر مهمّ جدّا. باع كلّ ما لديه من فول و لكنّه ظلّ مرابطا بالحانة لا يبرحها... عندما وصل اللّيل إلى العاشرة قلن مازالت أمامنا ساعة واحدة أو لم تبق أمامنا غير سّتين دقيقة... لم تكن فاتن تشعر بأيّ إحساس مميّز. لم تكن فرحة ولا كانت كئيبة. كانت تنتظر وكفى. لعلّها كانت تنتظر كهؤلاء المنتظرات والمنتظرين من حولها. قد تفرح عند دخوله... قد يركبها الغمّ لعدم وفائه بوعده ولكنّ ذلك ليس الآن. ذلك يحدّده مجيء السّاعة الحادية عشرة توقيت نهاية ساعات عملها.

زبائن الحانة ليلتها أحسّوا أنّ شيئا غير عاديّ يختلج في صدور النّادلات الأربـع وتظهر أماراته على وجوههنّ وحركاتهنّ. كلّ لاحظ أنّ العيون معلّقة بالباب بشكل لافت للانتباه و بجوّال فاتن بشكل مثير للشّكوك.

تحرّك اللّيل نحو العاشرة والنّصف وبدأت مساحة احتمال مجيء التّاكسيست تتقلّص. ثمّ تحرّكت العقربان نحو الحادية عشر إلاّ الرّبـع... ثمّ تجاوزتـا بعد قلق طويل ذلك الرّبع اللّعيـن وانتصبت إحداهما معلنة تمام

الحادية عشر... نظرن إلى الجوّال يبحثن في وجهه عن أيّ أثر لأيّة إرساليّة أو لأيّ اتّصال... كان وجه الجوّال خاليا من كلّ الأمارات... معا ودون أيّة نيّة مسبقة صحن صيحة فرح واحدة ... صيحة وضعت حدّا للتّردّد... و أعلنت الوقوف على قرار أخير ... صيحة الانتشاء بخروج فاتن من عبوديّة التّاكسيست ومن دائرة الأمل الكاذب.

فاتن منذ اللّيلة امرأة أخرى. امرأة لكلّ الرّجال . لا لرجل واحد.

-9-

قال لها :

- اسمعيني جيّدا. يجب أن تعرفي أنّني قبلك لم أكن مولعا بالخمر و لا بالخمّارات . قدماي لم تطآ مكانا كهذا قبل أن يضعك في طريقي الحظّ والصّدفة والطّريق . لساني لم يذق عن قصد ولا عن غيره أيّا من أصناف الخمور. حتّى هذا الذي يصنّع هنا في مدينتنا للاستهلاك المحليّ لم أعرف له طعما. يجب أن تدركي جيّدا أنّني جئت هذه الخمّارة وتنـاولت فيها ما تنـاولت لأجلك... لأجـل أن أراك وأتحدّث إليك... الآن... أنا أرغب في العودة إلى حياتي الأولى... ولكنّي لن أعود إليها إلاّ وأنت معي. تعالي إليّ أخلّصك من روائح التّبغ والخمر و هرج السّكارى وإذلال الأعراف.

إلى حدّ ذلك الوقت، لم يكن حاتم يتوقّع غير شيء واحد هو أن تقول له فاتن: هذه مسألة لم تدر بخلدي تماما ولعلّني سأظلّ أرفضها طوال حياتي . إن كان ما يهمّك هو الزّواج فابحث لك عن واحدة أخرى. أنا لا أستطيع أن أتخلّى عن عملي بالحانة ولا أن أغيّر نمط الحياة الذي اعتدت عليه.

إلى حدّ ذلك الوقت لم يكن حاتم يخشى غير أن تقول له فاتنته:

- دعنا صديقين دون زواج. أنا واحدة خلقت لأخدم رجالا كثيرين لا رجلا واحدا. خلقت لأقوم بشؤون خمّارة لا بشؤون بيت.

ولكنّ المعارضة جاءته من جانب آخر لم يكن يتوقّعه. لعلّ حاتما كان يعتقد أنّ مجرّد تأمينه مسؤولية الإنفاق على أبيه وأمّه وإخوته كفيل بأن يردّ عنه غوائل وقوف أيّ منهم في وجهه مهما تكن الطّريق التي سيسلك و الوجهة التي سيختار.

فاجأته فاتن مرّتين، مرّة أولى عندما وعدته أن تفكّر و تردّ عليه. وقتها اعتبر أنّ طلب المهلة مؤشّر لإمكانيّة الموافقة واطمأنّ إلى أنّ فاتن لن ترفضه إن رفضته لشخصه إنّما لأسباب خارجة عنه شخصيّا، ومرّة ثانية بعدها عندما كشفت له عن عواطفها نحوه وأعربت عن موافقتها على الزّواج.

وفاجأه أهله عندما وجّهوا إليه أسئلة عن الفتاة وأهلها وأصلها وفصلها و تاريخها و سنّها و طالبوه بأن يضع كلّ ذلك في الاعتبار.

اضطرّ حاتم إلى أن يمجّد جمالها ويشيد بأصلها وعائلتها وقال إنّها تشتغل بائعة ملابس وعطورات في إحدى مغازات المدينة... ذهب إخوته يجوبون المغازات فلم يجدوا لفتاة أخيهم أثرا... انطلقوا في سلسلة مراقبات دقيقة إلى أن عثروا على التّاكسي جاثمة أمام حانة عبد الله الأحمر. وأطلّ أحدهم فرآه يحتسي الجعّة وأمامه تلك الفتاة تضع له في فمه قطعة كبد مشويّ.

كان الحلم بالرّجل و بالبيت قد بدأ يستقرّ في فاتن وكان حبّ التّاكسيست قد غزاها أشواطا حتّى إنّها كرهت عبد الله وابنه وحانتهما والزّبائن وفتح قوارير الخمور وحتّى إنّها بدأت تشعر أنّها في سجن عليها أن تخرج مـــنه... ولـم يعد حديثها مع نفسها ومع حاتم أو مع زميلاتها على غير الزّواج... إلى أن رفعت العائلة المحافظة الشّارة الحمراء أمام ابنها. جنّدت له عقلاء العشيرة لينبّهوه إلى أنّه اختار من بين كلّ نساء الدّنيا واحدة مهنتها فتح القوارير لسكارى اللّيل وآخره.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

salehymabrouki@gmail.com

-10-

ساعات ما بعد المغرب ساعات تكتظّ فيها الحانة اكتظاظا شديدا حتّى لا يكاد القادم في ذلك الوقت يعثر على كرسيّ شاغر أو طاولة لا يحيط بها أحـد وحتّى إنّ زبائن لا تربط بينهم أيّة صلة يضطرّون أحيانا إلى تقاسم طاولة واحدة... ساعات يكثر فيها اللّغط و الصّياح بل وتعلو أصوات غناء أحيانا حتّى يصبح مستحيلا التّمييز بين كلمة و كلمة أو جملة وجملة أو معنى ومعنـــى... ويتكاثف فيها في كلّ فضاء القاعة دخان التّبغ حتّى يصبح التنفّس صعبا ويصبح مجال الرّؤية ضيّقا... وتتكاثر فيها الحركة والهبّ والدّبّ بشكل غالبا ما يتسبّب في تدافع الزّبائن وفي سقوط القوارير والكؤوس والصّحون وتهشّمها وفي صعوبة تنقّل الفتيات الأربعة وفي صعوبة تنقّل باعة السّجـائر والفول المطبوخ والحمّص السّاخن ورؤوس الغنم المصليّة وقطع الشّوكولاطة والجبن المستورد واللّوز والفستق...

تلك السّاعات ما أشدّها على فتيات الحانة اللاّتي يسيطر عليهنّ خلالها التوتّر والخوف ... التوتّر بسبب ازدياد الطّلبات وكثرة هرج السّكارى والخوف خاصّة من بعض الذين يملأون بطونهم بما يزيد عن كفايتها من أنواع الشّراب المختلفة ثمّ يختفون دون أن يدفعوا ثمن ما شربوا... ذلك أمر يخيف الفتيات كثيرا، فرفيق المسؤول عن محاسبتهنّ على ما تسلّموا منه طوال ساعات عملهنّ لا يتسامح معهنّ في مثل هذه الحالات ... وعلى كلّ من اختفى من مربّعها زبون أو أكثر دون أن يدفع ما عليه أن تتحمّل المسؤوليّة الماديّة كاملة دون نقصان.

العيون الثمانيّة موزّعة بين الزّبائن تراقب طلباتهم وبين الكؤوس والقوارير تتثبّت من مستوى هبوط سوائلها وبين الدّاخلين الجدد تنظر في وجوههم وما حملت أيديهم وأيّ الطّاولات اختاروا ثمّ ما أشارت به أصابعهم وبين الخارجين نتأكّد إن كانوا دفعوا ما تخلّد ببطونهم.

سي عبد الله رفض اقتراح الفتيات القاضي بطلب الخلاص المسبق رفضا باتّا. قال لهنّ إنّه لا يضمن ردود فعل الحرفاء إن هو بادرهم بسوء الثّقة وقال لهنّ إنّ ذلك سيكون سببا في فرار الزّبائن ثمّ ترك مسؤوليّة الدّفع مناطة بعهدتهنّ... ورغم كلّ الاحتياطيات وكلّ الحذر الذي يلازم النّادلات فلا واحدة منهنّ نجت من عمليّة تحيّل مّا... كلّهنّ وقعن تحت طائلة السّرقة مسبقة الإصرار و التّرصّد.

ليلـى

جاء وحده... اختار طاولة قريبة من الباب... وأشار إليها بسبّابته... كان يرتدي بدلة زرقاء جديدة في لون السّماء... وربطة عنق خضراء في لون العشب... أخرج من جيبه علبة سجائر فاخرة وبدأ يطلب قوارير جعّة باردة... انضمّ إليه بعد نصف ساعة واحد آخر وأصبحت الطّلبات مضاعفة. ظلاّ يشربان من الثّالثة بعد الظّهر إلى الثّامنة ليلا... الثّامنة بالضّبط أشار إلى ليلى أن تعالي.

- أربعة. اثنتان لنا و اثنتان لك. و هات ورقة الحساب.

شكرته ليلى واستدارت نحو الكونتوار... أخذت من رفيق قارورتين... ولمّا وصلت إلى طاولة الاثنين ، لم تجد لهما أثرا... جالت بعينيها مبهوتة بين الطّاولات ... أسرعت تجري نحو بيوت الرّاحة تفتّش فيها عن زبونيها

المحترمين ثمّ اندفعت ووراءها الحارسان خارج مبنى الحانة لتفاجأ بأنّه لا أثر للشّابين الأنيقين.

فاتن

كانوا أربعة. جلسوا في أدب وخاطبوها في أدب ومدّ إليها أحدهم علبة سجـائر وولاّعة... اهتمّت بهم فاتن اهتماما خاصّا... أعجبها كثيرا أدبهـــــم واتّزانهم وهدوء طاولتهم وسماحة طباعهم.

ظلّوا يتناولون أصنافا مختلفة من الشّراب من الخامسة مساء إلى ما بعد العاشرة ليلا. العاشرة بالضّبط انسحب أصغرهم سنّا... شربوا بعد خروجه ثلاث قوارير جعّة. كانوا يضحكون ويتبادلون النّكات...العاشرة وعشر دقائق انسحب من الثّلاثة اثنـان... وفاتن تستدير نحو الكونتوار لجلب طلبات زبائن آخرين، انسحب في خفّة و هدوء عجيبيْن الشّابّ الرّابع. عندما انتبهت إلى خلوّ الطّاولة منهم ، هرولت نحو باب الخروج تتعقّبهم . كان الشّارع خاليا إلاّ من بعض سيّارات جاثمة على جنبيه كقبور منسيّة ومن قطط تراود بعضها بعضـا وتطلق مواء حادّا طويلا.

ليلتها ، ولولت فاتن وبكت، وانتقل غضبها إلى صاحباتها الثّلاث، فدعون على الأربعة دعاء مرّا أمّن عليه سكارى آخر اللّيل وسبين الرّجال سّـــــرا وسبين الأربعة علنا، ثمّ قرّرن أن يتقاسمن المبلغ الذي ذهب من ذمّة صاحبتهنّ.

سعيدة

لا أحد من زبائن حانة عبد الله الأحمر انسحب يوما من مكانه وغادر الصّالة دون أن يدفع لسعيدة ما تخلّد بذمّته من شراب. لا أحد احتلّ طاولة وتظاهر أمامها بأنّه محترم أو مترف ثمّ اختفى فجأة تاركا لها ثغرة في الحساب ستتحمّل في نفس اللّيلة مسؤوليّتها فيها أمام رفيق ماسك الحسابات. لا أحد أغراها بسجائر فاخرة ليوهمها أنّه مقتدر على دفع ثمن جلسته ثمّ استلّ نفسه استلالا من بين الجالسين والواقفين وتركها تبحث عنه في بيوت الرّاحة وفي شارع الحانة... ولكنّ سعيدة رغم هذا الحظّ الذي لم يسعف أيّا من زميلاتها الثّلاث تعرّضت لنهب مسبق التّرصّد والإصرار واضطرّت إلى أن تخضع لخصم شهريّ من جرايتها على امتداد عدّة أشهر إلى غاية خلاص الدّين .

السّاعة كانت تشير إلى اقتراب الواحدة بعد منتصف اللّيل والبار كان خاليا أو يكاد... القائمان بالحراسة ألقيا نظرة على الطّاولات فوجداها شاغرة ليس فيها غير أربعة حرفاء فانسحبا ... دخل ثلاثة ملثّمين ... كان في الحانة رفيق وراء الكونتوار منشغلا بالتّثبّت من ثمن القوارير التي وزّعتها سعـــاد ... و سعيدة تقبض مقابل ما شرب زبون يهمّ بالخـروج... الثّلاثة انقضّـوا عليها بعنف وانتزعوا حافظة نقودها المحيطة بخصرهـا وانصرفوا...

سعاد

لم تكن سعاد أكثر حظّا من الأخريات الثّلاث. أيّام تلك الواقعة كانت المدينة تعيش على وقع أفراح الصّيف الكثيرة. كثير من الزّبائن كانوا تلاميذ جاؤوا يومها يحتفلون بتجاوزهم عقبة امتحان الباكالوريا. جاؤوا معا... ضمّوا طاولتين إلــى بعضهما بعضا وكوّنوا حلقة من ثمانية أفراد. قالوا لها :

- نحن النّاجحون الجدد.

فهنّأتهم بالنّجاح وفرحت لفرحهم وانكبّت على خدمتهم ، ظلّوا يسكرون إلى أن انتصف اللّيل وامتلأ ما فوق طاولتيهم وما تحتهما بالزّجاجات الفارغة ثمّ بدأوا يتسلّلون نحو الخارج اثنين اثنين، كانوا يحيّون الحارسين في أدب وفي وداعة و يختفون.

ليلتها لعنت سعاد الباكالوريا ونتائجها والأولياء وأبناءهم وباتت يلفّها حزن ثقيل.

-11-

لم يكن حمّام الأنس بعيدا عن مبنى حانة الفتيات الأربع، ولكنّ سعادا لن تذهب إلى هناك بمفردها لأنّ الموعد المتّفق عليه كان الواحدة والرّبع صباحا أي بعد انتهاء ساعات عملها بربع ساعة. وليس لسي الزّاهي صاحب الحمّام ما يكفي من الشّجاعة لانتظارها بنفسه، و هو لا يحبّ أن تقف أمام حمّامه تاكسي حاملة إليه في آخر اللّيل امرأة.

كانت سعيدة قد انسحبت قبل الوقت بنصف ساعة لتنطلق صحبة سي منصور ابن صاحب الحانة إلى مزرعته الواقعة في أوّل المدينة وكانت كلّ من ليلى و فاتن قد أخبرتاها أنّهما لن تناما في غرفتيهما... لذلك لم تجد سعاد عند صعودها إلى الطّابق الأوّل الواقع فوق قاعة الحانة أثرا لهنّ. غيّرت ملابسها بسرعة ونزلت السّلّم المؤدّي إلى الباب الخلفيّ... كانت في انتظارها الخالة وحيدة حارزة الحمّام ... مشتا جنبا إلى جنب صامتتين إلى أن وارتهما جدران حمّام الأنس... كان سي الزّاهي ينتظر قلقا ولكنّ قلقه طار بمجرّد ما انتصبتا أمامه واقفتين. خفّ يدخل سعادا إلى غرفته الخاصّة وأمر الخالة وحيدة بإعداد ما يلزم السّهرة من أطعمة... للزّاهي غرفة واسعة مؤثّثة بكلّ المرافق الضروريّة والكماليّة اعتاد أن يأوي إليها بعد كلّ حمّام كما اعتاد أن يبيت فيها أحيانا مقنعا زوجته و أبناءه بأنّه يفضّل عادة بعد أخذ حمّام مطوّل أن يبيت فيها على أن يعود إلى البيت الواقع في طرف المدينة.

يجمع أهالي المدينة على أنّ بدن سي الزّاهي وملامحه لا تكشفان البتّة عن عمره الحقيقيّ. كلّهم يعرفون أنّ الرّجل تخطّى عتبة الستّين منذ سنوات ولكنّهم متّفقون على أنّ وجهه وجه شابّ في الثّلاثين وأنّ جسمه جسم رياضيّ متناسق ليست فيه عظام ناتئة وليست فيه شحوم زائدة... لم يغز شعره شيب

وليست به أيّة آثار تجاعيد ومازالت حركته خفيفة لا يعتريها بطء ولا تثاقل. النّاس يعزون ذلك إلى أنّ الزّاهـي لم يمـارس طوال حياته أيّ عمـل منهك. ورث عن أبيه حمّـاما فوسّعه وطوّره وأصبح يجني من ورائه ربحا طائلا. ورغم أنّه ينفق منذ سنوات على أمراض زوجته المزمنة التي أحلّت بها الشيخوخة قبل الأوان فإنّ ذلك لم يضرّ بمدّخراته ولم ينعكس سلبا على نسق عيشه... آخرون يعزون شباب الرّجل الدّائم إلى أفضال الحمّام عليه وإلى دأبه على نقع بدنه في الماء السّاخن الفائر وفي البخار الكثيف وآخرون يردّون حيويّة الرّجل إلى انّه لم يُر يوما غاضبا أو ثائرا أو خارجا عن طوره.

أخرج سـي الزّاهي من الثّلاّجة المنتصبة في ركـن من أركان الغرفة قوارير خمـر معتّق و جاءتهما الخالة وحيدة بصحون غلال مختلف ثمّ بأطباق شواء طريّ. كانت سعاد جائعة فلم تنتظر أن يدعوها إلى الطّعام مضيّفها. كان لدى الزّاهي اقتناع بأنّ اللّحم المشويّ والغلال المختلف سيساعده حتمـا على أداء هذه المهمّة التـي يحبّها ويخشاها. وبين اللّحم المشويّ وأصناف الغلال خفّ الزّاهي إلـى خزانة في طرف الغرفة وعـاد منها حاملا سلسلة ذهبيّة طـوّق بها رقبة سعاد عربون هيـام واقتراحا لتأسيس علاقة ودّ دائم يحتضنها الحمّام و تحرسها الخالة وحيدة و يغذّيها عطاء متبادل.

أتيا على كلّ ما أعدّت الحارزة من أطباق وعلى كثير ممّا أخرج الزّاهي من الثّلاّجة ثمّ همّا ببعضهما. همّت به سعاد و همّ بها... و احتضنهما السّرير... هي في ثوب نوم حريريّ ناعم أسـود وهو ... شبه عار.

كانا معا. في بعضهما، في تفاصيل بعضهما ، عندما شقّت اللّذّة صيحة أطلقها الزّاهي أفزعت سعادا وجعلتها تنهض من تحته مذعورة وتنزله عنها لتمدّده على ظهره وتتثبّت ممّا ألمّ به.

كان يضع يده على موقع قريب من قلبه ويرنو إليها بعينين زائغتين... صبّت على وجهه ماء ومسّدت له قلبه ولكنّه أطلق صيحات ألم أخرى... ارتدت على عجل ملابسها وخرجت تنادي وحيدة ... قالت وحيدة وهي تتأمّل السّلسلة الذّهبيّة التي تطوّق عنق سعاد:

- مبروك. والله تستاهليها.

فجذبتها سعاد إلى الدّاخل وهي توشوش لها:

- الرّاجل باش يموت.

أسرعتا إليه... وأحاطتا به... اقتربت منه وحيدة قليلا... ثمّ كثيرا... ثمّ مدّت يدها و أغمضت له عينيه وطلبت من سعاد أن تساعدها على أن تلبساه قطع ثيابه المتناثرة في فضاء الغرفة وفوق السّرير... لم يكن الوقت يسمح بالتّردّد. لم يكن يسمح بغير الانسحاب... كأنّهما كانتا على اتّفاق مسبّق، غطّتاه كأنّه ينام بعد حمّام مطوّل ساخن... تأكّدتا من أنّ أيّا منهما لم تترك أثرا في الغرفة ولا في الحمّام ثمّ انسحبتا في صمت كصمت الموت... سارتا سويّا في نفس الطّريق التي سلكتاها منذ ساعة . لا واحدة منهما سألت الأخرى : كيف جرى ما جرى وكيف حدث ما حدث؟ أو ماذا سيجري غدا؟ لا واحدة منهما نطقت اسم المرحوم الجديد ولا جرى لسانها بذكر ما ألمّ به فجأة. كان برأسيهما أمران لا ثالث لهما: أنّ الموت كان معهما حيث كانا ولم يأخذهما وأنّ على كلّ منهما أن تصل إلى سريرها وتنام كأنّها لم تكن في الحمّام ولم تلتق صاحبه الذي وجدتاه يتّقد حياة و تركتاه و قد بدأ يشبع موتا.

توقّفتا في نفس المكان الذي انطلقتا منه في الواحدة و الرّبع ... صعدت سعاد إلى غرفتها وانسحبت الأخرى في اتّجاه دارها القريبة من هناك.

الغريب أنّ سعادا وجدت إلى النّوم سبيلا. نامت كما لم تنم منذ أمد طويل ... وتدافعت عليها أحلام كثيرة ... رأت في ما رأت محكمة منتصبة

ومحامين كثيرين جاؤوا يدحضون عنها تهمة القتل التي وجّهتها إليها عائلة صاحب الحمّام ... رأت شبّانا غلاظا يهدّدونها بالقتل وبقلب حياتها إلـى جحيم وبالذّبح و السّلخ انتقاما لأبيهم منها ورأت في ما رأت صاحب الحمّام يبتسم ويقول لها:

- " اللّي مات على شبعة مات مرحوم"

ورأت أشياء كثيرة أخرى.

نامت سعاد كأنّها لم تكن للتّوّ مع رجل مات بين يديها... أو فوقها... مع رجل ألبسها سلسلة ذهبيّة ثمينة... وجذبها إليه... ثمّ انبعث منه إنذار أوّل... تلاه إنذار ثان... بعدهما همد وخبت فجأة النّيران التي كانت تتّقد فيه.

نامت سعاد، نامت وهي مطمئنّة إلى أنّه لم يكن بوسعها أن تفعل أكثر ممّا فعلت. الرّجل أشار إلى قلبه... فأسرعت تمسّده له وتصبّ عليه الماء البارد... ولكنّ الموت كان أسرع من أيّ إسعاف محتمل... ولم يترك وقتا للطّبيب ولا لأيّ تدخّل آخر. ذاك أجله الذي لم يكن سيتأخر لحظة حتّى ولو لم يلتقيا اللّيلة في الحمّام. ذاك أجله الذي كان سيأتيه حتّى ولو كان يبيت مع زوجته وبنيه... الرّجل شرب كثيرا... وأكل كما يأكل أسد جائع... ولا شكّ أنّ في بدنه كانت تستقرّ أدواء مميتة تنتظر ما يثير شوكتها لتغرسها في عمره وتقصفه.

نامت سعاد واستفاقت مع العاشرة صباحا على نداء منبعث من المسجد القريب من الحانة.

الله أكبر.

الله أكبر.

انتقل إلى رحمة الله تعالى

المرحوم الزّاهي بالطيّب

صاحب حمّام الأنس

و سيشيّع جثمانه....

" الله يرحمه" ، قالت. ثمّ انتقلت إلى جوّالها و محت منه اسمين: الزّاهي حمّام، كما كانت سجّلته قبل ذلك ووحيدة الطّيّابة... وذهبت تغتسل من روائح الخمر والموت واللّحم المشويّ التي اجتمعت فيها ليلة البارحة.

اغتسلت ثمّ تمدّدت واستعادت من جديد هاتفها الجوّال ولم تدر لماذا من بين كلّ الأسماء التي يعجّ بها كوّنت رقمين خاطبتهما على التّوالي : أمّـــــها ومعتزّ ولدها.

-12-

جاءت الدّنيا بعد ثلاثة أشهر من زواج أمّها من أبيها... ذلك ما استطاعت أن تعرفه بعد أن اجتازت المرحلة الابتدائيّة والتحقت بالمعهد الثّانوي... مذ اكتشفت المفارقة والحيرة والتّسآل يلحّان عليها: لماذا جئت بعد تسعين يوما من اقترانهما؟ أليسوا يقولون: كلّنا أولاد تسعة؟ لماذا وحدي شذذت عن القاعدة وجئت بعد ثلاثة؟

لم يكن ممكنا أن تتوجّه بالسّؤال إلى أبيها.

لم يكن ممكنا إلاّ أن تنهال بالأسئلة على أمّها ولم يكن أمام الأمّ أجوبة كثيرة. كان أمامها جواب وحيد فرّت منه مرارا وحاولت أن تتجنّبه ولكنّها انهارت أخيرا وقرّرت أن تضع حدّا لحيرة ابنتها:

- غلطة.

ولم تزد على ذلك حرفا.

لم تكن بنت الرّابعة عشر في حاجة إلى أكثر من اعتراف والدتها أنّها وقعت في الخطيئة مع أبيها قبل أن يصير زوجها بستّة شهور لتفسّر انحصار المدّة الفاصلة بين تاريخ الزّواج وتاريخ ميلادها بشهور ثلاثة.

وقتها فهمت لماذا تتعامل نساء الحومة مع أمّها بحذر شديد. كأنّهنّ يخفن أن توقع رجالهنّ في المصيدة التي أوقعت فيها زوجها قبل أن تتزوّجه... كأنّهنّ مقتنعات تماما بأنّ من أخطأت مرّة يمكن جدّا أن تخطئ مرّات أخرى... كأنّهنّ يقلن إنّ من سلّمت نفسها مرّة لعابر سبيل ستقضّي عمرها تصطاد العابرين ...

هكذا هنّ النّساء، حتّى المدمنات على الأخطاء أو على الخطيئة منهنّ يجدن ذلك عارا إذا ما تعلّق بغيرهنّ، يمارسن الخطيئة ولا يغفرنها للأخريـات وفـي تاريخ الخطيئة وتفاصيلها وأسبـابها ونتائجها لهنّ ذاكرات لا تسقط أدقّ التّفاصيل...

وقتها فهمت لماذا لا تهدأ بين أبيها وأمّها الزّوابع والخصومات، وقتها فهمت أنّ ثقة أبيها في أمّها امّحت تماما وأنّه لن يغفر لها أنّها أخطأت حتّـــى وإن كان شريكها في الخطأ، هو وليس أيّ واحد آخر... حتّى وإن كـان هو وقتها قد قال لها : تعجبني شجاعتك، أنـا ممتنّ لتفهّمك وعاجز عن ردّ جميلك... فهمت أنّ أباها سيظلّ يعتبر أمّها امرأة آيلة للسّقوط وأنّ الرّجال لن يتورّعوا عن الطّمع فيها والتّقرّب إليها ومراودتها ...ووقتها فهمت لماذا امّحت ثقة أمّها في أبيها ولماذا لم تستطع أن تنسى أنّه أخطأ مرّة... حتّى وإن كانت هي لا غيرها،حتّى و إن كانت هي شريكته في ذلك الخطإ... حتّى وإن كانت هي من أغرته بالخطإ وجرّته جرّا إليه...حتّى وإن كانت وقتها قد قالت له : أنت تستحقّ أكثر من هذا الذي أقدّمه لك ، أنا لا أمنّ عليك... من حقّك عليّ أن أهبك هذا الجسد الذي تعلقّت بك روحه، كله هنيئا.

وقتها فهمت لماذا منذ سرى في بدنها النّضج وبدأت علاماته تظهر للعيان، أصبحت محلّ اهتمام خصـوصيّ. حطّت فيها الأنظار وبدأ يطمع فيها ذكـور الحـيّ ويتجرّؤون عليها دون سواهـا... كأنّ ذكـور الحـيّ يقولون لأنفسهم ولبعضهم بعضا : " اقلب البرمة على فمّها، تطلع البنت لأمّهـــــــا" ووقتها فهمت لماذا سارع أبواها إلى التّخلّص منها. جاء المنقذ الذي كانا ينتظرانه. تشكّ الآن في أنّه جاء بمحض إرادته. يراودها الآن يقين أنّه جيء به. ولم تكن فاتن ضدّ أن يجيء منقذ ويخلّصها من هرج أبويها و طمع الذّكور فيها...

غزت سيّارة الأجرة فجأة رائحة تبغ ووقيد اصطدمت بها أنوف الرّكّاب الثّمانية وسائقهم. أحدهم نفد صبره فتجرّأ وأشعل سيجارة تسبّبت في نشوب خلاف بينه وبين السّائق استمرّ آخذا في الاحتداد إلى أن أتى الرّاكب على جلّ سيجارته فرمى غاضبا ما بقي منها منهيا ذلك الجدل الذي قطع حبل أفكـارها

وأعـادها إلى مكانها داخل السّيـّارة وبين ركّابها وكان خيط الذّكريات الذي لا تدري كيف بدأ ولا ما جاء به قد أنساها تماما ما هي فيه وأعادها إلى زمن بعيد.

لم تكن ضدّ أن يجود عليها الحظّ بواحد ينسيها غمّ والديها وهرج شبّان الحـيّ ، ولكنّها لم تكن تنتظر أن يكون ذلك المنقذ شيخا في أرذل العمر... ماتت زوجته الثّانية فنصحه فاعلو الخير أن لا يقضي بقيّة عمره يتيما وزفّوها إليه... لم تكن له أملاك تغري أبويها ولا حتّى جراية شهريّة ترثها من بعده... لم تكن له غير دار قديمة اكتشفت بعد موته أنّه حوّلها في أيّامه الأخيرة إلى ملكيّة أصغر أبنائه.

جاءت ابنتها حوريّة بعد موت زوجها الشّيخ بثلاثة شهور... ظلّت ترعاها أمّها إلى سنّ السّادسة ثمّ قبل أخوها أن يضمّها إلى أسرته بمقـــــابل وفرحت فاتن لتلك الموافقة التي ستحيط ابنتها بمن يساعدها على إنجاز و فهم الدّروس.

يلفّها السّاعة حزن عميق . تتقاسمها السّاعة أحاسيس شتّى لا تستطيع لها حصرا. تشعر بالنّدم ولكنّها لا تدري على أيّ شيء تندم و يداخلها حزن لا تستطيع أن تجد له سببا. وحده الخوف الذي يلمّ بها تستطيع أن تجد له تفسيرا سليما. هي الآن تدرك أنّها خائفة من الآتي. كيف ستعيش أمّها بعد أبيها ؟ لن تنضمّ بالتّأكيد إلى عائلة أخيها لما بينها وبين زوجته من خلاف وكراهيّة، ولن يكون سهلا أن تظلّ بمفردها ... وسيكون صعبا أن تصطحبها إلى حيث تعمل.

لم تنتظر كثيـرا بعدما توقّفت سيّـارة الأجرة ولفظت ركّابها نحو الخارج... جاءت تاكسـي وأخذتها إلى حيّ الزّيتونة. على بعد أمتار من المنزل نزلت، نقدت السّائق أجرته و مشت في اتّجاه القلّة القليلة المصطفّة في خشوع أمام باب البيت تنصت إلى سور من القرآن الكريـم. احتضنتها أمّها وهي تبكي وسلّم عليهـا أخـوها ببرود ورأتها ابنتها فلم تكترث بمقدمها وجذبتها إليها جثّة

أبيها المسجّى في الدّاخل فهرعت إليه تقبّل جبينه البارد وتلقي عليه نظرتها الأخيرة.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-13-

الأيّام الأخيرة من كلّ شهر أيّام يبلغ فيها إقبال طلاّب الأنس والشّراب على حانة الهناء مبلغا لا مثيل له خلال أيّام الشّهر الأخرى ويبلغ فيه حجم مبيعات كلّ أصناف الخمور التي توفّرها الحانة أرقاما عالية جدّا.

تلك الأيّام كم يحبّها سي عبدالله ومنصور ابنه.

كم يتمنّيان لو تكون كلّ الأيّام رؤوس أشهر.

كم يتمنّيان لو يقبض الموظّفون والعمّال أجورهم عدّة مرّات في الشّهر الواحد.

قد يتخلّف أحدهما أو كلاهما عن الحانة خلال الأيّام العاديّة ولكنّ حضورهما أيّام الجرايات أكيد لا ريب فيه. لا يمكن أن يتغيّب عن الحانة أيّ منهما عندما يكون الزّبائن كثيرين وتكون الجيوب عامرة. لا بدّ من مراقبة العرض والطّلب ومدى قدرة النّادلات على تأمين راحة كلّ ذلك العدد الكبير من السّكارى الذين كلّما ازدادوا شربا كلّما أمعنوا في طلب شراب جديد.

تستطيع أن تشبّه حانة عبدالله الأحمر أثناء أيّام رؤوس الشّهر بسوق أسبوعيّة. حركة لا تهدأ وضجيج آخذ في الإزدياد وطلبات تفوق مستوى الخدمات أحيانا وباعة مختلفون يجوبون الطّاولات الكثيرة يعرضون سلعهم بأثمان تنزل و تصعد حسب درجة خروج كلّ زبون عن حالته التي جاء بها الحانة.

في الصّالة الكبيرة، يتناوب على الطّاولات بائع فول وحمّص ساخنين وفتيان يبيعون السّجائر والجبن والشوكولاطة وواحد اختصّ في بيع الرّؤوس المصليّة وآخر في بيع صحون فيها كوكتال غلال... إلى هؤلاء يأتي القاعة أحيانا شبّان وكهول يبيعون عطرا مغشوشا وساعات رخيصة وربطات عنق وأحذية وهواتف جوّالة وبضائع أخرى.

وعلى حانة سي عبدالله يتردّد نفر من المتسوّلين والمتسوّلات جرّبوا زبائنها فألفوهم أكثر رحمة من مارّة الشّوارع و من زبائن بقاع أخرى.

وإلى الازدحام الشّديد الذي يحدث أثناء أيّام صرف الجرايات، تعرف الحانة اكتظاظا من نوع آخر خلال الأيّام القليلة التي تسبق شهر رمضـــــان ويومـي عيد الفطر و عيد الأضحى وعند عودة عمّالنا بالخارج...

ورغم أنّ حانات أخرى تحيط بعبدالله الأحمر من كلّ الجهات، فإنّ حانة الهناء استمرّت أكثرها جلبا للحرفاء وأكثرها إقبالا واكتظاظا... ورغم أنّ بعض تلك الحانات قد استغنى عن الذّكور وعوّضهم بفتيات طريّات مغريات يقمن مقامهم في تلبية طلبات الحرفاء وفي ترتيب الحانـة وتنظيفها فإنّ أولائك الفتيات لم يستطعن أن يضـاهين ربـاعيّ حانة سـي عبدالله ولا أن يأخذن منهـنّ المولعين بالخمر وبالنّساء.

ولعبدالله الأحمر اليوم من مداخيل حانته أرصدة في أكثر من مكـــــان ومزرعة ينتصب بين أشجارها العالية قصر صغير ومشاريع تجاريّة نـــاجحة وما يكفي لإقامة نزل جديد.

وسي عبدالله لا يفتأ يردّد أنّ " الفلوس تجيب الفلوس" ويفتخر بأنّه جمع ثروته مـن عرقـه ومن اجتهاداته وابتكاراته وأنّه لم يجرؤ يوما على أن يضع في حسابه ملّيما لا حقّ له فيه... بل أنّ سي عبدالله يفتخر خصوصا عندما يسلمه الخمر إلى الانتشاء بأنّه صاحب مشروع ثقافيّ يدرّ ربحا عليه وعلى الحرفاء على السّواء، فهو يغنم من بيع الخمور فوائد جمّة وحرفاؤه ينسون في حـانته كلّ هموم الحياة وكلّ نكد الزّوجـات ومشاكل الأبناء والبنات وضغوط العمل ومآسي الدّنيا.

- إنّهم هنا، يقول ، من أجل أنفسهم ولا شيء غيرها. من أجل أن يرتاحوا لا من أجل أيّ شيء آخر. ولو لم يكونوا هنا لكانوا في السّـــــــجون والمستشفيات. سي عبدالله يقول إنّ في حانته مجال للحرّيّات لا يحويه أيّ فضاء آخر وإنّ حرفاءه يشربون حتّى الثّمالة وبين أيديهم فتيات كالحور

العين... وإنّهم يتصرّفون كيفما يحلو لهم ويتكلّمون في مواضيع شتّى، في المرأة والسّياسة والدّول والحروب وآفات المجتمع... إنّهم هنا يقولون شعرا لا يرتقي إليه الشّعر الذي يقوله آخرون يسمّون أنفسهم شعراء... ويقولون حِكَمًا لا يمكن أن تنتبه إليها طائفة الأدباء والمفكّرين ... وفوق كلّ ذلك ... إنّهم يضحكون... من كلّ قلوبهم يضحكون... ومع الضّحك هم يغنّـــــــــــون... ويرقصون...هل استطاعت البقاع التي تسمّي أنفسها ثقافيّة أن تروّح عن قلوب النّاس وتزيل عنها صدأها والنّكد الذي يلمّ بها... هل استطاعت تلك البقاع أن تجعلهم يقولون شعرا وحكما ويحلّلون أحداث العالم حدثا حدثا...؟

ولعلّ ما يميّز عْبُودة وابنه منصور عن باقي أصحاب الحانات الأخرى حبّهما لحرفائهما... معهم يتبادلان التّحايا الحارّة والأحاديث العائليّة والنّكات البذيئة ... يسألان عمّن يتغيّب عن الحانة ويتدخّلان أحيانا لفضّ نزاعات تنشب بين زبائن لهم وزوجاتهم وهما يصلان مع بعض الزّبائن إلى حدّ إقراضهم لفكّ أزماتهم الماليّة العابرة.

ترهق أيّام الازدحام تلك نادلات عبودة اللاّتي يضطررن لمضاعفة الجهد وزيادة الانتباه لتغطية كلّ الطّلبات واستخلاص كلّ ما يتخلّد بذمّة زبائنـــــهنّ ولكنّهنّ رغم التّعب المضاعف لا يذهبن إلى النّوم إلاّ بعد ما يتبادلن الحكايات حول ما حدث خلال تلك اللّيالي من طرائف لا تحدث في الأيّام الأخرى... يتحدّثن عن حرفاء لا يأتون الحانة إلاّ يوم قبض جراياتهم، يدخلون بجيوب ملآنة ثمّ لا يغادرون إلاّ بعد أن يصرفوا كلّ ما جلبوا على القوارير وعلى الفتيات وعلى أصدقائهم الذين يلاقونهم هنا أو الذين يجلبونهم معهم... يتحدّثن عن حرفاء تلحقهم إلى الحانة زوجاتهم أو أبناؤهم أو أحد أفراد عائلاتهم لجرّهم جرّا إلى الخارج والعودة بهم غصبا عنهم إلى بيوتهم، يتحدّثن عمّن يفرغ جيبه من فرط ما استهلك فيضطرّ لبيع ساعته أو جوّاله للإنفاق خلال بقيّة اللّيل...

ليلهنّ ذهاب وإيّاب بين رفيق والحرفاء أو بين الكونتوار والطّاولات وحديث عن أطرف ما تعرّضن إليه ثمّ نوم كنوم الموت يربط بين ساعات آخر كلّ ليل و ساعات بدء كلّ نهار.

-14-

رغم أنّ التّعب قد نال منهنّ كثيرا... رغم أنّ اللّيلة كانت صاخبة وأنّ الحانة كانت عاجّة بكلّ أصناف الزّبائن وأنّ عطش السّكارى لكلّ أصناف الخمور المتوفّرة في ثلاّجات سي عبدالله كان شديدا... رغم ذلك كلّه، قرّرن أن لا يذهبن إلى النّوم إلاّ بعدما تضمّهنّ إحدى الغرفتين وتجمعهنّ ساعة سهر...

أحطن بطاولة وضعن عليها بعض الأكل : كسكروتات وغلال وخبز وكوكا وسجائر وشطر رأس خروف ونصف دجاجة... وقعن على الأكل صامتات ولم ينطلقن في بعض الكلام إلاّ بعدما أحسسن أنّ نباح الجوع فيهنّ قد خبـــا وهمد.

- وقتاش يتوب علينا ربّي من ها الصّنعة؟
- و الله حتّى أنا كنت باش نقلكم ربّي يفرّغ ها الخبزة على قريب.
- يا بنات راكم تاكلو في الغلّة وتسبّو في الملّة.
- أنا أقول الحمد لله على كلّ حال.

بداخل كلّ واحدة من نادلات الحانة اقتناع ثابت بأنّهنّ يؤيّدن عملا نتوفّر فيه كلّ مواصفات النّذالة والبؤس... فيه الشّقاء فيه المذلّة و فيه الإهانات وفيه أشياء أخرى... بداخل كلّ منهنّ قناعة بأن العمل في حانة ليس فيه أيّ ذرّة من احترام... وبأن ليس ثمّة ما هو أنكد على امرأة من أن تقضّي عمرها مع السّكارى وحثالة اللّيل يقايضنها على بدنها بقوارير الجعّة وعلب السّجائر وأوراق نقديّة ووعود أخرى. كلّهنّ مقتنعات بأنّ غناءهنّ ورقصهنّ وضحكهنّ ليس غير متطلّبات مهنيّة يخشين أن يمّحي بإهمالها عقد العمل مع حانة الهناء.

لا واحدة منهنّ استطاعت أن تكفّ عن الحلم بزوج يكون لها وحدها... وتكون له وحده . لا واحدة منهنّ استطاعت أن تتخلّص من مشاعر الحسد الكامنة فيها للآتي وضعهنّ الحظّ في طريق رجال ارتبطوا بهنّ العمر كلّه.

قالت ليلى و هي تعود من غسل يديها:

- اتّقين الله يا فتيات . أنتنّ في نعمة . ومن كانت في نعمة ولم تشكر ... لا أدري إن كنت أخبرتكنّ أنّ اثنتين من زميلات الدّراسة تلحّان عليّ منذ مدّة أن أتدخّل لفائدتهما في فرصة عمل بأيّة حانة. الاثنتان حاصلتان

على الأستاذيّة لا أدري في ماذا... إحداهما أقسمت لي بأنّها مستعدّة بأن تعمل مقابل الأكل و النّوم فقط.

- أنا أيضا، أضافت سعاد، عبّرت لي قريبة من قريباتي عن رغبتها في الالتحاق بنا أو بأيّة حانة أخرى وعن استعدادها لفتح قوارير الخمور لسكارى آخر اللّيل.
- ما يحسّ بالجمرة... قالت فاتن.
- كان اللّي عافس عليها . أكملت سعيدة...

لكلّ واحدة منهنّ جمرتها ولكنّ المكابرة والنّسيان سيبلهنّ جميعا إلى أن يتغلّبن على حياتهنّ... لكلّ جمرتها ولكن لكلّ أسباب ودوافع تجبرها على تحمّل لسع اللّهيب.

ليلى مقتنعة تماما بأنّها منخرطة في عمل يؤمّن لها حياتها خلال ثلث عمرها الأخير حين لا يعود هذا الجمال وهذا اللّحم قادرين على شدّ الانتبـــاه وإثــارة الغرائز وحين تغزو الأسواق سلع جديدة غير مستعملة فيها إغراءات أخرى وقادرة على عطاء أكبر وبأثمان أقلّ.

ليلى على اقتناع بأنّها تعيش مرحلة عليها أن تتلذّذ بخيرها وأن تتحمّل شرّها إلى أن تعلن الأرقام أنّها وصلت إلى مستوى الطّمأنينة ، مرحلة عليها أن تعيش حلوها لأنّه حلو وأن تعيش مرّها كأنّه حلو.

سعاد وسعيدة وفاتن ثلاثتهنّ مقتنعات بأنّ العمل الذي انخرطن فيه ضرب من الالتزام الذي لم يعد سهلا التّخلّي عنه... اعتدنه و اعتدن دخله اليوميّ واللّيليّ والشّهريّ ورتّبن أمورهنّ على نسق ذلك الدّخل... ثلاثتهنّ مقتنعات بأنّ عملهنّ في حانة سي عبدالله شرّ لا بدّ منه وأنّ الأفضل لهنّ أن يقتنعن بأنّه خير لا غنى عنه... ثلاثتهنّ مقتنعات بأنّ الشّغل مع سي عبدالله أو عنده التزام لا تجاه أنفسهنّ بل تجاه الأيادي الممدودة من بعيد لتجني باستمرار

وبانتظام ثمار ذلك الشّغل. ثلاثتهنّ جاء بهنّ إلى حانة الهناء همّ أكبر من همّ فتح القوارير وفتح الأقفال وسلاسل الأمان وما شابهها... ثلاثتهنّ وقف ضدّهنّ الحظّ وسدّت أمامهنّ الأبواب ومررن بتجارب أمرّ من هذه التي يخضنها الآن... تمتدّ نحو سعاد يدا أمّها القائمة على تربية ولدها و يـدا ولدها الذي لا يجب أن يتحمّل أخطاء أمّه التي أنجبته دون حـقّ وأخطاء أبيه الذي زرعه علـى عجل و فرّ هروبا منه ثمّ لم يلتفت بعد ذلك حتّى لمجرّد السّؤال عنه، يدا طفل صنع في لحظات مسروقة لم يقرأ لها أيّ من السّارقين الاثنين حسابا. ذهبت لذّة تلك اللّحظات البعيدة وبقي أثرها أمانة في عنق السّارق الذي لم يفرّ بعيدا عن مسرح جريمته.

وتمتدّ نحو سعيدة أيادي أمّها وأبيها الذين لم تعد لهما صحّة الأمس للجري وراء الخبز اليوميّ. أربعة أياد لا يفهم صاحباها سوى أنّ لهما بنتا لها عمل " قار" ودخل محترم وعليها أن تصرف عليهما من ثمار ذلك العمل القارّ ومن راتبه وحوافزه. اشتغلت سعيدة قبل مجيئها إلى بار سي عبدالله الأحمر في بار صغير بتونس العاصمة. ذلك البار كان مجرّد مطعم عنّ لصاحبه بعد زمن أن يحوّله إلى خمّارة فتحوّلت سعيدة من نادلة مطعم إلى نادلة حانة ثمّ نشبت بينها و بين مشغّلها خصومة حادّة أدّت إلى بطالتها شهورا قبل أن يشفق عليها ذلك المشغّل ويوصي بها خيرا عند سي عبدالله صاحب "حانة الهناء" المتربّعة في قلب مدينة تبعد عن العاصمة خمس ساعات كاملة.

أمّا فاتن فإليها تمتدّ أياد كثيرة... يدا أمّها التي أصبحت أرملة ويدا ابنتها اللاّجئة عنـد خالها ويدا شقيقها المتكفّل بإيواء ابنتها تلك ويدا زوجته حتّى تحسن إلى طفلتها كلّما لم تجد إلى الإساءة إليها سبيلا. هي تدرك تماما أنّ ما يطلبه أخوها كلّ شهر وفي كلّ مناسبة أكثر بكثيـر ممّا نتطلّبه واحدة فـي عمر ابنتها وأنّ أخـاهـا وزوجتـه وابنته يعيشون منها، من عرقها في حـانة عبدالله

الأحمر... من الثّمن الذي يُدفع لها مقابل لحمها وخدماتها و ضحكها وملاطفتها الحرفاء... ولكنّها لا تستطيع إلاّ أن تسلّم بالأمر وتقبله دون اعتراض... دون تعليق ... ودون امتعاض.

نساء سي عبدالله مدركات أنّ الحصول على أيّ شغل آخر ليس سهلا وأنّ أيّ فرصة عمل أخرى لن توفّر الإقامة والحماية والدّخل والحوافز التي توفّرها حانة سي عبدالله... مدركات أنّ المداخيل المتأتّية من السّهر مع الأصدقاء والعشّاق وطلاّب اللّذّة قد لا تتوفّر في أيّ ظروف أخرى، وأنّ العودة إلى ديار الأهل حلّ لا سبيل إليه.

ما يقلق نادلات الحانة أنّ السّهر على راحة السّكارى مضن جدّا ومهين إلى حدود بعيدة وأنّ مسألة الاستغناء عليهنّ أمر وارد في كلّ حين لا يكلّف سي عبدالله غير الكاف والنّون وأنّ مرابيح عملهنّ لا تغطّي لمن تمتدّ نحوها أياد كثيرة غير المصاريف العاديّة الآنيّة.

على يمين سرير سعاد تنتصب صورة معتزّ يضحك ملء شدقيه وأمام محطّ عيني سعيدة كلّما تمدّدت على سريرها صورتا أمّها وأبيها وفي عينيهما تعب الماضي البعيد و ذلّ الوقت وأمراض الكبر وعلى يسار فاتن صور كثيرة لابنتها التقطت لها تبكي أو تضحك أو تغمز بإحدى عينيها أو تخرج لسانها... وفي رأس ليلى مشاريع وأحلام وطموحات لا تنام ليلا قبل أن تقلّبها جميعا وتنظر فيها وتعدّ لها وتبوّبها وترتّبها وتخطّط لها...

تلك الصّور على اليمين وعلى اليسار وعلى الجدار وتلك الأحلام التي لا تنام هي ما تجعل رباعيّ الفتيات يطبّقن قاعدة " شدّ مشومك لا يجيك ما أشوم منّو" تطبيق المؤمن بالأمر المسلّم به عن طواعيّة تامّة.

خلت الطّاولة المنتصبة بينهنّ إلاّ من بقايا أكل قواريـر وكؤوس شبه فارغة وتبادلت الفتيات طرائف اللّيلة وما تعرّضت إليه كلّ منهنّ فيها مع

سكاراها ثمّ بدأ يغلبهنّ التّثاؤب فانسحبن متثاقلات يجررن أرجلهنّ جرّا نحو أسرّتهنّ وفي رأس كلّ منهنّ أفكار ستنظر فيها قبل أن يأخذها النّوم و يسلّمها إلى منتصف النّهار الموالي.

-15-

يبلغ إحساس فتيات حانة سي عبدالله بالمهانة أيّما مبلغ بسبب ما يمارسه معهنّ بعض الحرفاء من سلوك همجيّ : ضرب ودفع أحيانا وبذيء كلام وشتم غالبا.

ليلى تجرّأ عليها شابّ غليظ ماطلته طويلا لتتخلّص منه ثمّ لمّا لم تُجْدِ المماطلة عبّرت له عن رفضها الصّريح لمرافقته إلى دارٍ قال إنّه استلفها بضع ساعة من مجموعة من الطّلبة يسوّغونها أثناء أشهر العام الدّراسيّ. ليلتها،

شرب متعمّدا إلى درجة لم يعتدها وأقسم لزملاء الطّاولة أنّه سينتقم لشرفه منها وأنّ أفضل سبيل يرتئيه لردّ اعتباره الذي عبثت به تلك النّادلة هو أن يصفعها على مرأى من السّكارى ويضحكهم عليها... أشار عليها أن تعالي ليدفع ما تخلّد به وبأصحابه فجاءته تمشي على عجل... مدّ إليها ثمن ما استهلكوا متعمّدا أن يزيد عليه عشرة دنانير. ظنّت ليلى أنّ الورقة الزّائدة مبلغ إضافيّ تعمّد الحريف أن يجاملها به... ولكنّه استوقفها بمجرّد ما استدارت قافلة نحو الكونتوار وافتعل معها خصومة متّهما إيّاها باستغلاله وسرقته ثمّ هوى على خدّها الورديّ الصّافي بصفعة عنيفة... لم تبك ليلى ولم تتكلّم ولم تولول إنّما ردّت على تلك الصّفعة بصفعات متتالية أعنف وأشدّ... فضحك الحاضرون طويلا وكانوا يضحكون على الشّابّ الغليظ لا عليها.

سعاد أيضا أهانها أحدهم مرّة حتّى شعرت بإذلال شديد.

السّاعة كانت تقترب من منتصف اللّيل والحانة بدأت تخلو من كثير من سكاراها وسعاد كانت تذهب وتجيء بين رفيق وآخـر سكارى اللّيل... فجأة اندفع أحدهم وانقضّ عليها من الخلف وبطحها فوق طاولة فارغة وبدأ يقبّلها ويعبث بأزرارها... ولكنّها قاومته ودفعته إلى الخلف واستعانت بالحارسيْن اللّذين جاءاها على عجل ورمياه في قلب الشّارع بعد أن انتزعا منه ثمن ما صبّ في جوفه.

سعيدة يومها كانت رائعة. كانت مغرية، شهيّة ، لأوّل مرّة يراها حرفاء الحانة متخلّية عن سروال الدّجين مكتفية بتنّورة ضيّقة تنزل إلى الرّكبتين...

تملّى زبائنها ساقيها المكتنزتين البيضاوين كشمعتين... ولكنّ أحدهم عنّ له أن يكشف عمّا فوق ذينك السّاقين... جاءها من دبر وأمسك بسرعة التّنّورة من طرفيها ومزّقها كما يمزّق النّور فضاء داكنا كاشفا بذلك عن كلّ شيء...

وقبل أن يتدخّل الحارسان أسرع إليه جمع من السّكارى فطرحوه أرضا وأشبعوه ضربا ونزعوا عنه سرواله وألقوه في الشّارع.

فاتن لم تكن أسعد حظّا من صاحباتها الثّلاث.

اشتعلت بينها وبين حريف لها مشادّة كلاميّة خرج فيها عن طوره وبصق عليها أمام الجمهور. كان الزّبون أشعث أغبر وكان حديث عهد بالحانة وفتياتها.

قال لها:

- هل تسمحين برقم هاتفك؟

فنظرت إليه باحتقار شديد وكادت تضحك هزءا.

عندها جاءها ردّه سريعا جدّا.

تعمّق سلوكيّات كهذه شعور المذلّة لدى فتيات سي عبد الله فينتابهنّ حقد على الحرفاء وكره للعمل بل واحتقار لأنفسهنّ... ولكنّ هذه المشاعر تنقلب أحيانا أخرى إلى عزّة وافتخار عندما يحسسن أنهنّ يملكن قرار قبول طالبيهم أو رفضهم وقرار تحديد المكان والزّمان وثمن المتعة وتوابعه... ثمّ يصبح هذا الإحساس أقوى عندما يسعى إلى الفتيات حرفاؤهنّ المقرّبون للتوسّط لهم في قضاء حاجات إداريّة استعصت عليهم.

أربعتهنّ تدخّلن بمقابل في مسائل متعلّقة برخص البناء وبإدخال النّور الكهربائيّ والماء الصّالح للشّراب وفي تسريع قروض شخصيّة وقروض بناء وقروض أخرى وفي إمهال آجال دفع شيكات حلّ ميقاتها وفي استخراج وتجديد جوازات سفر في زمن قياسيّ وفي صفقات صناعة وتجارة... تلك الحاجات تجعل كلاّ منهنّ تشعر أنّها مهمّة جدّا و أنّها تستطيع ما لا يستطيعه الآخرون وأنّ لديها عند من يهمّهم الأمر حظوة لا تضاهى. تلك الحاجات تجعلهنّ يشعرن أنّ لهذا الشّغل عليهنّ مزايا كثيرة وأنّ حانة سي عبدالله مركز

مهمّ يمكن أن يربطن عبره خيوطا كثيرة وأن ينمّين من خلاله علاقات مفيدة وأن يقضين انطلاقا منه حوائج ذات قيمة... تلك الحاجات التي يتوسّطن فيها بين زبائن لهم و آخريـن مهمّين لهنّ عليهم مزايا و تمتدّ بينهم و بينهنّ علاقـات ودّ وأخذ وعطاء تجعلهنّ يقتنعن بأنّ بأيديهنّ حلّ وربط عقد كثيرة... صحيح أنّهنّ يقضين حوائجهنّ وحوائج الخلق عن طريق أبدانهنّ، عن طريق ما يَعدن به أو ما يوفّرنه فعلا من رقص ومؤانسة وأحـاديث ولذّة ولكنّ المهمّ أنّ لديهنّ ما يعوّلن عليه لإثبات قيمتهنّ . هنّ يدركن أنهنّ لسن ذوات شهادات عالية ولا ينحدرن من عـائلات كبيـرة وليس لديهنّ وظائف ذات فعل وتـأثير... كـلّ ذلك هنّ يعرفنه جيّـدا ولكنّهنّ راضيات أو كالرّاضيات بما قسمه الزّمن لهنّ... مكتفيات بأنّهنّ لئن كنّ يُـهَنَّ أحيانا فإنّهنّ يصبحن في أحيان كثيرة عيونا يستضاء بها وأدلّة تهدي إلى الحلول القويمة وأياد تمتدّ نحو الغرقـى والهاوين وملاذا يلجأ إليه طلبا للرّاحة والمتعة والتّوازن من لا نساء لهم أو من لهم نساء كالرّجال أو من ملّوا نساءهم لتقادم العهد بينهم وبينهنّ أو من لا تستطيع امرأة واحدة أن تسكت اللّهيب المتأجّج فيهم أو من فاضت عليهم الأموال فدفعتهم إلى البحث عن سبل متعة مختلفة.

بين خدمة سكارى حانة سي عبد الله وإمتاع حريف يأخذهنّ إلى دار بعيدة أو إلى سيّارة فخمة أو إلى مستقرّ له في غابة أو مزرعة ، نتراوح حياة نادلات الحانة. تهيّؤهنّ خدمة السّكارى لأن يقع عليهنّ الاختيار الذي توجّهه شهوة الحريف فـي أن ينفرد بمن اختـار عوض أن يظلّ يراها تمشـي و تجيء بين عشرات الزّبائن.

بين الطّاولات والأسرّة ، بين عيون كثيـرة وعينين ثابتتين، بين أياد كثيــرة ويدين مرتجفتين ، بين أموال تُجمع لتذهب إلى خزانة سي عبد الله

ومبالغ تعطى لهنّ شخصيّا مقابل سكن مؤقّت في أجسادهنّ... بين كلّ ذاك وكلّ هذا... تتراوح حياة رباعي الحانة.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-16-

تأكّد للدّكتور رضوان صاحب عيادة الطبّ العامّ الأكثر شهرة في المدينة وقراها احتمال إصابة مريضه بمرض خبيث.

أكّدت له تلك النتيجة الفحـوص والأسئلة الدّقيقة التي وجّهها له بشبه حيـاد والصّورة الأولى التي شاهدها عبر جهاز الأشعّة... ولكنّه رغم ذلك كلّه

يرغب في أن يقطع الشكّ باليقين وفي المرور إلى مرحلة أخرى أدقّ وأكثر تكثيفا .

قرأ سي عبد الله على وجه طبيبه شيئا كالامتعاض، كالاستياء، كعدم الرّضا، كالأسف... ولكنّه تجاهله وسأل كأنّه لم يلاحظ شيئا.

- خيرا إن شاء الله يا دكتور رضوان.
- كلّ خير. عليك فقط أن تجري ما سأطلب منك من تحاليل وأشعّات ثمّ تعود إليّ بمجرّد ظهور نتائجها.

هذه هي المرّة الأولى التي يطلب منّي فيها طبيب الخضوع لأشعّات وأجراء تحاليل مختلفة. هل تستحقّ الحالة كلّ هذا الاهتمام؟ أم الأمر مجرّد تثبّت وتدقيق ؟ عبرت ذهن عبودة أسئلة كثيرة لم يلق بها على طبيبه... طوى الأوراق في جيبه و مضى واعدا رضوان أن يعود إليه خلال أسبوع.

آلام حادّة وقيء مستمرّ وعزوف عن الأكل وارتفاع في الحرارة أحيانا، تلك هي الأعراض التي ألمّت بسي عبد الله وأقضّت مضجعه... لم يعرها اهتماما في يومها الأوّل، و بدأ يفكّر في عرضها على الطّبيب في اليوم الثّاني واضطرّ أخيرا إلى أن يطرق باب عيادة الدّكتور رضوان ليعرض عليه أوجاعه و مخاوفه.

تمنّى الطّبيب لو كان لديه رقم هاتف ابن المريض ليدعوه إلى العيادة بعد خروج أبيه و يحيطه بشكوكه الأوّليّة... ثم فجأة قفز إلى ذهنه طيف ليلى فأسرع يكوّن رقمها .

- أهلا دكتور. كيف حالك.
- بخير و أنت؟
- الحمد لله . سعيدة جدّا لسماع صوتك.

- شكرا. لديّ موضوع هامّ وأودّ لو تتفضّلي بزيارتي في العيادة الخميس القادم.

- سأفعل. الخميس صباحا.

كان الطّبيب يعرف أنّه سيحصل من مخابر التّحليل ومن مركز التّصوير على النّتائج المطلوبة قبل يوم الخميس وكان يجب أن ينقل إلى أحد المقرّبين من سي عبد الله بعض الأمر أو الأمر كلّه. لم يكن ممكنا أن يصارحه مباشرة بمخاوفه ولا كان ممكنا أيضا أن يدع المسألة في طيّ الكتمان ويخفيها عن ابنه أو عمّن يتكفّل بإيصال الأمر إلى ابنه.

ولم تسأل ليلى الطّبيب عن سبب الدّعوة ولم تجتهد حتّى في أن تضع لتلك الدّعوة احتمالات مّا... ولكنّها احترمت الموعد واضطرّت يوم الخميس إلى أن تكون مع العاشرة صباحا في عيادة طبيب مشغّلها.

أحسّت أنّ الأمر يعنيها. هو إحساس لا تستطيع أن تجد له تفسيرا ولكنّها كالمقتنعة بأنّ مرض سي عبد الله يهمّها من قريب. من قريب جدّا. فهي أوّل من علم الأمر والأمر على درجة من الخطورة والأهمّية وهي على علاقة عمل وأشياء أخرى بسي عبد الله وولده وحانتهما.

سألت رضوان عن نسبة الأمل في الشّفاء فأفادها بأنّها ضعيفة جدّا وعن أمل الحياة الباقي فلم يجبها بشيء... يومها لاحظ زبائنها ارتباكها ووقوع الكؤوس والقوارير منها مرّات عديدة وانتبهت هي إلى حالات السّهو التي ألمّت بها وإلى ذهابها في التّفكير بعيدا ولكنّ الأمر ظلّ بينها وبينها... إلى أن التقت سي منصور ليلا.

بين سي عبد الله وولده علاقة من نوع خاصّ. هي ليست علاقة والد بولده ولا أخ بأخيه ولا صديق بصديقه إنّما هي كلّ ذلك معا. كلّفه أبوه منذ سنين مراهقته الأولى بمساعدته من حين لحين على الإشراف على الحانة.. .

هناك سمعا معا كلام السّكارى النّابي ووصلت أذنيهما معا نكات فاحشة ... فسقطت حواجز كانت قائمة وأُزيحت كلفة لم يعد لها موجب... ثمّ أصبح عبودة يدعو ابنه إلى طاولة الشّراب فيشربان معا بمفردهما أو في مجموعة من أصدقاء عبودة المخلصين... لم يكن لعبودة إخوة ولا أخوات ولم يكن له أولاد غيره... وسي عبد الله لا يؤمن كثيرا بجدوى الدّراسة... كان يرى أنّه يكفي منها ما يفي بالحاجة... أو أنّه يكفي كلّ واحد ما يفي بحاجته... وحاجة ولده لم تكن تتعدّى القراءة والحساب... ما عداهما ثقافة موكولة إلى الحانة... الحانة التي يرى سي عبد الله أنّها مشروع ثقافيّ له على روّاده أفضال كثيرة وقادر على تنشئة منصور ابنه تنشئة صحيحة متينة... ولم يكن عبودة يقتّر على ولده في ما يتعلّق بمصاريفه وشهواته حتّى إنّه منحه ثقة لا حدود لها في مشاركته إدارة الأملاك ورعاية الأموال المتأتّية منها...ما جلب لعبد الله النّكد أمر وحيد : ما أقلقه كثيرا أنّ ابنه الوحيد لم يلد وأنّ أموالهما الطّائلة عاجزة عن توفير حياة أطول بكسور ثوان لحيوانــاته المنويّة... ما أحزنه أنّ ابنه تركه وأمّه إلى دار جديدة فافتقداه كثيرا و اجتهدا لينسيا ذلك الفراغ الذي خلّفه على أمل أنّ داره ستمتلئ صبيانا وبنات ولكنّ منصورا عاد إليهما وحيدا بعدما تركته زوجته ولم يتحقّق ذلك الأمل.

يذكر منصور الآن أنّه طالما نصح أباه في الأسابيع الأخيرة بعدما لاحظ في بدنه وهَنا آخذا في الازدياد بالإقلاع عن التّدخين والاعتدال في الشّراب والسّهر والكفّ المؤقّت على الجري وراء النّساء ووراء الدّنيا... ويذكر أنّ أباه لم يستسغ تلك النّصائح ولا وجد لها ما يبرّرها ويدعوه إليها.

وبقدر ما أدرك ابن عبودة أنّ الأمر خطير بقدر ما شعر بارتياح لأنّه علمه في وقت مناسب سيسمح له بالانتباه إلى أمور كثيرة وسؤال أبيه عن

أسـرار ومعاملات وحسابات لا يعلم عنها الكثير وسيسمح له بتهيئة أمّه للتّأقلم مع الحدث القادم.

- غدا نذهب سويّا إلى الطّبيب. علينا أن لا نستسلم مهما يكن مبلغ مرضه وأن نؤويه في إحدى المصحّات الخاصّة.

كان منصور سيقول أيضا:

- هذا أمر يجب أن يبقى بيننا.

و لكنّ ليلى فاجأته قائلة:

- دع الأمر سرّا بيننا ولا تنقل إلى أبيك حقيقة مرضه فتزداد حالته سوء.

لأوّل مرّة يلتقيان دون شراب.

لأوّل مرّة يلتقيان دون أن يلمس أحدهما الآخر .

تناولا الأمر من جوانبه العديدة... وتنبّآ بسيناريوهات مختلفة.

كان منصور كالتّائه وكانت ليلى كالدّليل توجّهه إلى ما يجب أن يفعل وبماذا يحسن أن يبدأ.

وقبل أن يذهبـا فـي ما يشبه النّوم طبعت على وجهه قبلة واقتربت منـه و احتضنته.

salehymabrouki@gmail.com

-17-

حريف اللّيلة واحد من عمّالنا العائدين من خارج البلاد لقضاء بعض الصّيف بين ذويهم. عاد منذ أسبوع واحد من إيطاليا حيث يقيم و يعمل. أجزل لها العطاء في أوّل مجيء له إلى الحانة حتّى جعلها تستلطفه وتعامله معاملة مخصوصة. ليلتها، شرب كثيرا ومعه شرب أصدقاء جاؤوا يحتفلون بعودته

الصّيفيّة... ولكنّه لم يفقد اتّزانه ولا خرج به الخمر عن الرّصانة والهدوء... ثمّ جاء مرّة ثانية بعد يومين، اختار إحدى الطّاولات الرّاجعة إليها بالإشراف والواقعة تحت مسؤوليّتها وخدمتها... أشار إليها بأدب فجاءته تمشي على عجل، مدّ إليها قارورة عطر إيطاليّة وتبغا مستوردا ولم يطلب شرابا كثيرا ولكنّه لم يغادر الحانة إلاّ مع الواحدة صباحا ساعة نهاية توقيتها اللّيليّ. الواحدة بالضّبط، وقفت أمامه منهكة كأنّها مشرفة على الموت أو كأنّها كانت على مرض فدفع إليها ما تخلّد بذمّته مضاعفا ومعه ورقة عليها رقم هاتفه الجوّال... ومضى.

انتظرت يوما كاملا، وانتظرت يوما آخر تردّدت فيه كثيرا قبل أن تلجم أصابعها على تكوين ذلك الرّقم ، ثمّ يوما ثالثا نفد فيه صبرها فكوّنت الرّقم وخاطبته لتنتهي بهما المحادثة إلى تحديد لقاء عاجل.

كانت بين يديه... تغالب تثاؤبها بعد ليلة من العمل المضني وتداري تعبها بالابتسام والطّاعة والاستسلام. كانت بين يديه... وقد اطمأنّت بعد إلى أنّ عطاءه سيكون جزيلا. وكانت قد شعرت بارتياح لما أدركته من تقارب بين عمريهما. هي لا ترتاح غالبا للفتيان الذين يصغرونها بسنوات عديدة لسبب واحد وحيد هو أنّها ترى في كلّ واحد منهم ابنها معتزّا إلى درجة أنّ وجه شريكها يصبح وجهه وأنّ همسه يصبح همسه... وهي لا ترتاح أيضا للواقفين على عتبة الشّيخوخة ولا تحسّ معهم بغير إحساس من يؤدّي مهمّة كالشّرّ الذي لا بدّ منه.

كانت بين يديه عندما نبح الجرو حذوها وبدأ نباحه يعلو شيئا فشيئا... حرّرت من تحته ذراعها ومدّتها إلى الجوّال وقرّبته منها فتحوّل لون وجهها من الحمرة إلى الاصفرار وتنبّهت عيناها اللّتان كانتا كالنّائمتين . فكّرت أن تترك الجوّال ينبح إلى أن يجفّ ريقه فيصيبه الخرس وفكّرت أن تضغط عليه بقوّة

فينقطع لسانه وتخمد أنفاسه ثمّ لم تجد الشّجاعة لهذا ولا لذاك فقرّبت الآلة من أذنها وقالت:

- آلو.

استلّ الحريف نفسه و اتّكأ إلى جانبها فسمع صوتا يقول لها باكيا:

-اعذريني على هذه المكالمة المتأخّرة ولكنّي مضطرّة إلى أن أقول لك إنّ معتزّا لم يعد إليّ منذ ثلاثة أيّام. انتظرته أوّل أمس إلى وقت متأخّر وانتظرته البارحة اللّيل كلّه ونفد صبري اللّيلة فقرّرت أن أحيطك علما. أنت طلبت أن لا أخفي عنك شيئا بخصوص معتزّ.

- ولكنّك أخفيت. هذا يوم غيابه الثّالث. ألم تخاطبيه عبر الهاتف؟

- هاتفه مغلق ودرّاجته مختفية معه ومعها افتقدت مبلغا من المال كان بحوزتــي وإسورتك الذّهبيّة التي تحتفظين بها عندي.

أدرك الحريف أنّ سهرته انتهت قبل أن تبدأ وأنّه لم يعد له شيء في سعاد اللّيلة. نهض يرتدي ثيابه غاضبا ونهضت هي أشدّ غضبا منه.

- اعذرني ... أمّي أخبرتني أنّ ابني لم يعد إلى البيت منذ أيّام ثلاثة.

انتقلت حيرتها إليه وسكنته سريعا كآبتها.

سألها:

- وماذا ستفعلين؟

- الآن أعود إلى العاصمة. سأذهب للبحث عنه. ليس أمامي حلّ آخر.

وهمّت بالخروج... مدّ الحريف يده إلى ذراعها وجذبها إليه.

- إن شئت أتكفّل بإيصالك إلى هناك. سنبحث عنه سويّا.

- هذا جميل لن أنساه لك ما حييت.

ثمّ صعدت إلى غرفتها... ملأت حقيبتها كما اتّفق... لم تكن سعيدة قد عادت من الخارج إلى حدّ تلك السّاعة... طرقت باب ليلى... أخبرتها بارتباك

شديد بسفرها المفاجئ وأسرعت ترتمي داخل سيّارة صديقها الجديد الذي لم ينعم بها غير بضع ساعة أو أقلّ ثمّ جاء الهاتف فهدم لذّته وحوّله من السّرير إلى مقود السّيّارة.

و لم يفتها رغم الظّلام الذي مازال يلفّ آخر اللّيل ورغم الارتباك الذي كانت عليه أن تنتبه إلى أنّ هذه هي أفخر سيّارة ركبتها إلى اليوم.

لم يكن الوقت يسمح بأيّ اتّصال مع أيّ من المسؤولين أو أصحاب النّفوذ ولكنّ رأسها المضطرب ألحّ عليها بتكوين رقم ولدها لتتأكّد فعلا إن كان هاتفه مغلق. تسعة . صفر. ثلاثة. ثمانية . خمسة . واحد . ورقمان آخران ضغطت عليهما على عجل ووضعت الآلة بين فمها وأذنها.

لم يكن الجهاز مغلقا.

هاتف معتزّ يرنّ.

رنينه واضح صاف مسموع ومنتظم.

- ها ! قال صاحبها ، وكان يتابع بارتباك كلّ حركة تقوم بها.

أومأت إليه كالمنبسطة أنّ الهاتف بصدد الرّنين،

- ألو، معتزّ ؟
- آلو. أهلا . ولكنّي لست معتزّا.
- أنت صديقه إذن؟
- لك أن تقولي ذلك.
- و أين هو؟ أريد أن أكلّمه. ولماذا تحتفظ أنت بهاتفه؟ أمّي تقول إنّه لم يعد إلى البيت منذ ثلاثة أيّام، هل تعرف عنه شيئا؟...

كانت تريد أن تلقي أسئلة أكثر ولكنّ مخاطبها قاطعها :

- اسمعي ، كلّ ما أعرفه أنّي اشتريت هذه الآلة من ولدك وأنّي نسيت أن أنزع منها خطّه الشّخصيّ... أعرف أيضا أنّه باع درّاجة ناريّة

وتصرّف في ممتلكات وأموال أخرى ورتّب أموره مع ربّان قارب صغير ويمّم وجهه شطر إيطاليا.

ثمّ انقطعت المكالمة.

هذا ما لم يدر بخلدها أبدا وما لم تقرأ له أيّ حساب وما لم تنتظره من فتى السّادسة عشرة... الهّاجون إلى إيطاليا تبرّر هروبهم البطالة والحاجة أمّا هو فلا عاش البطالة ولا شعر يوما بالحاجة...

لخّصت المكالمة لصاحبها في جمل مقتضبة فانتقل إليه قلقها... خفّف من سرعته ثمّ مال إلى اليمين وأوقف السّيّارة.

- لا أستطيع أن أقول لك هوّني على نفسك فالأمر فعلا خطير.

أمسكت سعاد وجهها بين كفّيها وانخرطت في نوبة نشيج عال تجاوز سمع مرافقها إلى أسماع الشّجر الواقف على جانبي الطّريق واللّيل الجاثم عليهما وعلى الأشياء من حولهما... أدار الرّجل محرّك السّيّارة من جديد وانطلق بسرعة أسرع.

لأوّل مرّة تحسّ سعاد أنّها عاجزة تماما عن فعل شيء يعيد إليها ولدها. لأوّل مرّة تحسّ أنّ للعجز مرارة لا تطاق. لأوّل مرّة تشعر أنّ عليها أن تفعل شيئا لم تتبيّنه ولم تدر من أين تبدأه. لأوّل مرّة تتمنّى أن يجيء النّهار بسرعة حتّى تبدأ في اتّصالات تدرك مسبقا أنّها كالميؤوس من نتائجها ولكنّها ستجريها لا محالة.

نصحها مرافقها أن تخلد إلى النّوم ريثما يطلع النّهار الجديد و يصلان إلى العاصمة ويبدآن في السّؤال والبحث وجمع المعلومات الكفيلة بتتبّع خيط الرّحلة منذ بدايتها والتّثبّت من المصير الذي وصل إليه قارب ابنها.

هو أيضا كان يريد أن ينام... ولكنّ مسؤوليّة المقود كانت تحرمه حتّى من أن يغفوَ لثوان... تركها تغمض عينيها وترمي على كتفه رأسها وواصل

السّير بسرعة أسرع. هو لا يدري لماذا هكذا بكلّ هذه العفويّة تبنّى كلّ القضيّة واعتبرها قضيّته. هو لا يدري لماذا يشفق على هذه النّادلة كلّ هذا الإشفاق ولماذا يندفع للبحث معها عن ابنها كأنّه يبحث عن ابن له. امتدّت يده إلى آلة التّسجيل تشغّلها على أمل أن يؤانسه أيّ صوت ويساعده على تحمّل الطّريق والسّهر... ثمّ امتدّت يده إلى علبة السّجائر تنقل إلى شفتيه واحدة على أمل أن تنبّهه وتحفّزه وتطرد عنه شبح النّوم... وبدأ اللّيل يتلاشى قليلا قليلا.

عندما وصل تونس العاصمة كانت أضواء النّهار الأولى آخذة في الانتشار.

قال لها دون حتّى أن يلتفت إليها:

- إلى أين نذهب؟
- إلى الحومة. نبدأ بأمّي ثمّ بأصدقاء معتزّ ثمّ نذهب إلى مراكز الأمن ثمّ نتّصل بأصحاب قنوات التّرحيل.

أخذت تدلّه على الطّريق: اتّجه نحو ... در إلى اليمين ... إلى الأمام ... إلى اليمين مرّة أخرى... إلى اليسار ... إلى الأمام ... سنتوقّف بعد حين.

توقّف قبل أن تشير عليه... نزل من السّيّارة ،صبّ على رأسه و وجهه قارورة ماء... حكّ عينيه... نفض شعره ... وقف مبهوتا لدقائق قليلة ثمّ عاد إلى السّيّارة كالمغمى عليه ... كالعائد من الموت ، كالمصعوق.

- ما بك ؟ سألته سعاد دون أن تلتفت إليه.
- إلى أين؟ سألها.
- إلى تلك الدّار ذات اللّون الأصفر... ذات الشّبّاك الكبير المطلّ على الشّارع، ذات الباب الحديديّ الأزرق.

عاوده إغماء برقيّ سرعان ما استفاق منه. شعر بدقّات قلبه تتسارع... شعر بقلبه يسرع سرعة لم يعتدها كأنّه سيخرج ويرتمي أمام

عينيه... كأنّه سيتوقّف قبل أن نتوقّف السّيّارة أمام الدّار التي نُعتت له ... المدينة هي المدينة والحيّ هو الحيّ والدّار ذاتها لا غبار عليها... بلونها الأصفر الذي مال كثيرا إلى البياض ببابها الأزرق ذي الواجهتين ... بشبّاكها الكبير المطلّ على الشّـارع... ولكنّ الوجه ليس الوجه والبدن لا علاقة له بالبدن القديم والاسم غير الاسم... تلك كانت تسمّى فاطمة... وهذه تدعى سعاد. ولكن ، ماذا لو أطّلت أمّها الآن وعرف فيها تلك المرأة التي عرفها من سنين طويلة؟

توقّفت السّيّارة أمام الباب ، نزلت سعاد وطلبت منه أن ينـزل، ولكنّه اعتذر و قال لها:

- دعيني أغفو هنا ريثما تسلّمين على أمّك وتسألينها عن أخبار ابنك ثمّ ننطلق سويّا في رحلة البحث.

لاحظت سعاد أنّ مرافقها مرهق... مرهق جدّا. يتكلّم بتقطّع ويفتح عينيه بصعوبة فعزت ذلك إلى تعب القيادة وطول الطّريق...

مازال هناك احتمال وحيد في أن تكون سعاد هذه هي سعاد النّادلة فعلا لا أيّ واحدة أخرى... احتمال أن يكون السّكّان القدامى قد غادروا هذه الدّار و أنّ سعـادا هذه و أمّها سكناها بعدهم... هو احتمال على أيّة حال.

طرقت سعاد الباب وانتظرت قليلا . كان سيلتفت ناحية الباب يتثبّت ممّا إذا كانت التي ستفتحه هي ذاتها تلك التي عرفها منذ سبعة عشر عاما خلت. سيحاول أن يبحث في عجوز اليوم عن كهلة تلك السّنوات أو تلك الشّهور من ذلك العام البعيد ... كان سيلتفت وكان سيتثبّت ولكنّه أدرك أنّه لم يعد في حاجة إلى كلّ ذلك... أدرك ذلك بمجرّد ما سمع الأمّ ترتمي في صدر ابنتها و هي تقول

- الحمد لله أنّك جئت يا فاطمة.

الآن فقط أصبح يراها فاطمة الأمس. فاطمة التي ظلّت زمنا تتسلّل إليه أوقات الضّحى وأعقاب اللّيالي إلى أن انتفض في بطنها شيء لم تقرأ له أيّ حساب... فصارحته به على أمل أن يتحمّل مسؤوليّته فيه ولكنّه تركها وترك ذلك الشّيء وفرّ يجوب الأرض والبحار إلى أن استقرّ في سنواته الأخيرة بإيطاليا حيث استطاع أن يصبح رجلا مهمّا. الآن رآها فاطمة واختفت تماما صورة سعاد التي قامت بخدمته بالحانة واتّصلت به عبر الهاتف وجاءت تنام حذوه ثمّ رافقته من هناك إلى هنا... غيّر الزّمن وجهها و استحال بدنها الذي كان نحيفا إلى آخر مكتنز أكثر نضجا وأنوثة واقتضى اشتغالها في حانة أن تستعير لنفسها اسما جديدا... ولكنّ أمارات أخرى كهذه الدّار وكأمّها لم يمحها الزّمن وإن غيّر فيها قليلا.

هو أيضا تبدّل . تناثر في شعر رأسه الذي أصبح طويلا ناعما شيب كثير واختفى الشّاربان الكثيفان وكانا يملآن الوجه كلّه واختفت عيناه تحت نظّارات طبيّة... اكتنز وجهه وتورّد بعدما عرفته فاطمة مجرّد عظام مختفية تحت جلدة صفراء وامتلأ بدنه الذي كان يشبه كثيرا فزّاعات الحقول.

- الحمد لله أنّك جئت يا فاطمة.

كلمات وضعت حدّا لشكوكه التي بدأت تلحّ عليه مذ بدأت سعاد تدلّه على الحيّ وتشير إلى الشّارع وتصف له الدّار.

تناهت إلى سمعه وهو داخل سيّارته أصوات آخذة في الاحتداد ووقع ارتطام كؤوس وصحون يرمى بها على الأرضيّة والجدران فنزل مسرعا وارتمى داخل البيت دون أن يطرق الباب أو يفكّر في الاستئذان.

-18-

اقترحت ليلى على منصور توزيعا جديدا لجدول العمل اليوميّ تفتح بمقتضاه الحانة بابها مع منتصف النّهار لتوقّف خدماتها مع تمام منتصف اللّيل فينخفض التّوقيت بساعتين هما عادة دون مردود يذكر وتخفّ وطأة العمل عليها وعلى سعيدة وفاتن اللاّتي سيضطررن في غياب سعاد إلى اقتسام القاعة بحساب الثّلث لكلّ واحدة منهنّ.

واقترح منصور على ليلــى أن تقوم مقامه فــي الحانة فتراقب التّوزيـع والمداخيل وتسجّل الاحتياجات ريثما يتفرّغ هو لمتابعة حالة أبيه.

يقلقه كثيرا هذه الأيّام هذا المرض الذي ألمّ بوالده. ويقلقه أكثر من المرض في حدّ ذاته كلام الأطبّاء الذين سدّوا أمامه حتّى الأمل في العلاج خارج البلاد.

- لا داع إطلاقا لذلك. الأفضل أن تدعه هنا بينكم يتداوى بالمسكّنات الفعّالة إلى أن ...

ولم يفهم سي عبد الله لماذا يتراخى ابنه في مسألة السّفر إلى الخارج للعلاج ويختلق لذلك التّراخي أعذارا شتّى . عبودة يؤمن بأنّ لكلّ مرض علاجا ولكلّ داء مهما استعصى دواء مّا... في مكان مّا... بتكاليف مّا... وما دامت التّكاليف متوفّرة فالعلاج موجود بالتّأكيد.

هذا ما ردّده أمام الأطبّاء وعلى مسمع ابنه... وكخطوة عمليّة أولى قال سي عبد الله : سأبدأ بالوقاية، فانقطع عن التّدخين وأقلع مبدئيّا عن تناول الخمور وابتعد عن نادلات الحانة وغيرهنّ وعن تناول الحبوب الزّرقاء... وبدأ ينتظر الشّفاء... ولكنّ القيء تواصل... والآلام احّتدّت ... والشّهيّة إلى الأكل انعدمت تماما، وعدد ساعات النّوم تدحرج إلى ما تحت العادة بكثير ولم تعد الأدوية تؤتي أكلا .

- افعل شيئا يا منصور. لا أريد أن أموت الآن.

قالها مرارا كالمقتنع بأنّ منصورا بوسعه أن يفعل شيئا مّا.

ولم يكن يدرك أنّ منصورا عاجز عن فعل أيّ شيء وأنّ الأمر تجاوزه بسرعة خارقة وتجاوز الأدوية والأطبّاء.

قالت له ليلى ليلة وهما معا:

- طِرْ به يا منصور إلى ألمانيا . يقولون إنّها أكثر البلدان نجاحا في علاج هذه الأمراض الخبيثة.

ولكنّه كان مدركا أنّ حالة والده لا علاج لها حتّى حيث أشارت ليلى.

- لا تشغلي بالك ليلى. هي أيّام معدودات وينتهي كلّ شيء.

اجتهدت ليلى كثيرا في أن تظهر تعاطفها معه ووقوفها إلى جنبه إبّان هذه الأزمة. كانت تسهر على سير العمل بالحانة بدءا براحة الحرفاء وصولا إلى حساب الأرباح وتجميعها ووضعها في حساب منصور بالبنك.

وكانت تسهر بعد إغلاق الحانة على راحته هو ... تدعوه إلى غرفتها أو ترافقه إلى الدّار الكبيرة بالمزرعة القريبة... وإمعانا في الإخلاص له وحده، طلبت منه أن يتولّى إحراق كلّ أرقامها الهاتفيّة وشراء خطّ جديد لا يعرفه أحد غيره... وقطعت فعلا علاقاتها مع زبائن وأصدقاء وعشّاق الأمس وأصبحت ترافقه بعد منتصف كلّ ليلة إلى المصحّة الخاصّة التي يرقد فيها أبوه... يتناوبان على السّهر عليه وعلى استدعاء الطّبيب والممرّضين كلّما استوجب الأمر استدعاءهم ... ثمّ يسلّمان العهدة إلى الحاجّة كاميليا مع مطلع كلّ نهار جديد.

أدركت كلّ من سعيدة وفاتن أنّ زميلتهما ليلى التي حوّلها سرطان سي عبد الله وانشغال ابنه به إلى المسؤولة الأولى عنهما وعن سير العمل بالحانة تخطّط لأمر خطير وأنّ حدثا مهمّا يقترب حثيثا من حياتهنّ وحياتها وحياة الحانة ولكنّهما مقتنعتان أنّ ليس فيما تسعى إليه ليلى أو فيما يسعى إليها ما يهدّدهما من قريب أو بعيد...

ثمّ تأكّدت كلتاهما بما لم يعد فيه مجال للشكّ أنّ ليلى قادمة على مرحلة جديدة لمّا واكبوا حدث وفاة مشغلّهنّ وفعاليّات العزاء والجنازة... تصرّفت ليلى كأنّها ابنته... كأنّها قريبة جدّا منه... كأنّها واحدة من أفراد الأسرة... كأنّها صاحبة قرار و نفوذ... تصرّفت بمباركة من منصور و والدته كاميليا... أصدرت أوامرها بإغلاق الحانة يوما كاملا حدادا على صاحبها ووزّعت وقتها بعد ذلك بين السّهر علـى طلبات الحرفـاء والإقامة ببيت

المرحوم حيث تتولّى مؤانسة أرملته والقيام بواجبات استقبال الوافدين للتّعزية... ثمّ أفرد لها سي منصور غرفة بجانب أمّه يأخذها إليها كلّ ليلة ويأخذها منها إلى الحانة قبل منتصف كلّ نهار.

بقدر ما كانت ليلى صادقة في قطعها مع كلّ العلاقات السّابقة وإقلاعها عن سيرتها القديمة بقدر ما جنّ الذين لم يعودوا يجدون عندها آذانا صاغية والذين جرّبوا عبثا كلّ الطّرق التي يمكن أن تؤدّي أو التي كانت تؤدّي إليها... رابطوا بالحانة... وبالغوا في كميّات الشّراب وضاعفوا الهدايا والعطايا ولوّحوا بالوعود ووظّفوا أعوان اتصال... ولكنّ ليلى باتت تتصرّف مع حرفاء الأمس كأنّها لم تصادفهم يوما ولا ربط بينها وبينهم ودّ وشراب سهر وهدايا وأخذ و عطاء... لاحظ سي منصور ذلك فاطمأنّ واطمأنّ إلى ليلى وإلى سلوكها الجديد وإلى وقوفها إلى جنبه أثناء الأزمة التي ألمّت به... طمأنه كلّ ذلك فأزمع في نفسه أمرا زاد من تشجيعه عليه إلحاح أمّه على أن يضمّ إليه وإلى الأسرة هذه الفتاة التي اسمها ليلى ودعاؤها له ولها رغم الحزن الذي يلمّ بها:" اللّهم اجعلها له وحده وارزقه منها ما لم ترزقه من غيرها وارزقها منه خيرا كثيرا."

tél. +216 98 603 987

-19-

منذ أسابيع طويلة والتّاكسي رقم 12050 لا يجوب المدينة طولا ولا عرضـا ولا يقرّب للحرفاء المسافات ولا يخطو خطوة واحدة خارج مستودعه. السّيّارة الصّفراء ترقد رغما عنها بين جدران أربعة وسائقها السّابق حاتم ينام غير بعيد عنها على سرير لا يبرحه لدقائق إلاّ لماما.

استنفر له أهله الأطبّاء والعرّافين والأصدقاء والمقرّبين ولكنّ حالته كانت تمعن في السّوء.

قال الأطبّاء بعدما فحصوه.

شاهدنا في قلبه كتلة همّ سوداء آخذة في الانتشار... أخذنا منها عيّنة وأرسلناها إلى المخبر فلم تحلنا النّتائج على أيّ دواء يمكن أن يخفّف منها أو أن يزيلها عنه أو أن يمنع انتشارها عبر خلايا الجسم الأخرى.

وقال العرّافون والعرّافات لأهله بعدما نظروا في حالته مرارا ومرارا:

اسألوا ابنكم عمّا يريد... وهاتوا له بغيته ولو كانت بأموال الدّنيا... يجب أن تضحّوا من أجله... من أجل أن يظلّ حيّا أو من أجل أن يبعث حيّا.

وانقسم الأقرباء إلى فئتين . قالت الأولى:

- دعوه يموت، هذا " رجل" لا يستحقّ الحياة. الموت ولا العار.

وقالت الثّانية :

- ارحموه ! لا تقفوا في طريقه ودعوه يجرّب دنياه ويستخلص بنفسه العبر.

لم تكن حالة حاتم تستدعي جدلا كثيرا ولا تسمح بإضاعة مزيد من الوقت.

لم يكن تركه يموت سهلا على العائلة ولم يكن السّعي إلى من ينقذه من ذلك الموت الأكيد مستساغا، وكان الأمر يتطلّب الحسم السّريع.

فكّرت العائلة أن تتّصل بهذه التي أشرفت بابنهم على الموت وتخبرها بالموافقة على الارتباط بابنها وفكّرت العائلة أن تجعل صاحب الحانة رسولا بينها وبين فتاة ولدها... ولكن نسبة من الاحتراز ظلّت قائمة فقرّر أهل حاتم نقل موافقتهم مباشرة إلى ابنهم ليفعل بتلك الموافقة ما يريد.

- لا مانع لدينا في أن تبحث عن سعادتك حيث تجدها. اذهب إلـى فتاتك واتّفق معها على ما تراه الأنسب.

خرج الوجه الأشعث يبحث عن أقرب حلاّق ليعيده إلى حالته الأولى وبحثت العينان في خزانة الملابس عن أثواب بألوان زاهية ودكّت السّيّارة الصّفراء باب مستودعها وخرجت تجوب الشّوارع من جديد... تُركب خلقا وتُـنزل خلقا آخر وتُسمع الرّكّاب أغاني الحياة... عندما دبّ في مفاصلها

التّعب، عندما بلّلها العرق وأحسّت بالعطش ذهبت تتوقّف حيث لم تتوقّف منذ أسابيع طويلة... ذهبت تتوقّف أمام حانة سي عبد الله ، حانة الهناء.

أغلب الطّاولات بدأت تمتلئ... وثلاثي البنات كان يذهب و يجيء بين رفيق مسؤول التّوزيع والحرفاء العطشى...

القاعة كانت قد بدأت تغرق في دخان كثيف وكلام كثير وضحك وصياح ورقص وأصوات كالغناء ... آوى التّاكسيست إلى طاولة في ركن شبه مظلم دون أن يكون متأكّدا أنّ ذلك الرّكن يعود بالإشراف إلى صاحبته التي جاءها دون إعلام مسبّق... لم يكن مجيئه إلى الحانة بغاية الشّراب في حدّ ذاته ولكنّه لم يكن ممكنا أن يظلّ جالسا وراء طاولة فارغة... رفع يده في اتّجاه رفيق فأشار رفيق إلى إحدى البنات بأن تشرع بالنّظر في تلبية ما يطلب هذا الزّبون الدّاخل للتوّ.

لم يكن صعبا على التّاكسيست أن يلاحظ أنّ عدد بنات الحانة تنقصه واحدة وأنّ المربّعات الأربع التي يتحرّكن فيها عادة أصبحت مثلّثات ثلاثة وأنّ الحرفاء يتوزّعون توزيعا جديدا التحق بمقتضاه زبائن الفتاة المتغيّبة بإحدى الأخريات...

لم يكن حاتم قد تبيّن بعدُ البنات الحاضرات لذلك ركبته خشية من أن تكون فتاته التي جاء يبشّرها بعهد جديد هي ذاتها المختفية. تمنّى أن يكون المانع خيرا في حالة غيابها دون غيرها ثمّ تمنّى تبعا لذلك أن لا يطول الغياب .

مذ وعد حاتم فاتنا بأن يعود إليها ومعه موافقة أهله ثمّ أخلف الوعد لم يتجرّأ حتّى على مخاطبتها عبر الهاتف خجلا من نفسه وخوفا من ردود أفعالها... ولكنّه أرسل إلى الحانة خلال مدّة مرضه وملازمته الفراش من يتجسّس له بمقابل عن أخبارها... ولم يكن يهمّه من أخبارها سوى أنّها موجودة لم تغادر الحانة ولا المدينة ولم تهجّ إلى بقاع أخرى.

قال جاسوسه :

- رأيتها بالحانة توزّع كعادتها القوارير الباردة على زبائنها العطشى ورأيتها في مناسبات أخرى خارج تلك الحانة مع رجال أعرف بعضهم.

ولم يفعل كلام الجاسوس شيئا سوى أن عمّق أحساس التّاكسيست بالذّنب إذ استقرّ بنفسه أنّه هو من دفعها إلى البحث عن التّعويض لتنسى وعده الكاذب وأنّها لم تلجأ إلى ربط علاقات أخرى إلاّ بعدما تأكّدت من تخلّيه عنها إلى الأبد.

وقفت أمامه وجها لوجه، عينا لعين، وتأمّلته مليّا... كأنّها تبحث فيه عن واحد تعرفه... كأنّها رأته قبل اليوم هنا أو في مكان آخر... ذهبت ملامحه من عينيها إلى تلافيف ذاكرتها تبحث بينها عن مؤشّر مّا يسعفها بإحالتها إلى صاحبها الحقيقيّ... إلى واحد مثله رأته قبل اليوم... رأته منذ زمن مّا في مكان مّا... أحسّ هو بالخجل وبحث عن مكان يخبّئ فيه عينيه، ثمّ ليداري ارتباكه وقف و مدّ يده قائلا:

- أهلا سعيدة . كيف حالك؟ و أين فاتن؟

أعادها الصّوت وسؤال " أين فاتن" إلى صورته الأولى فعرفته.

- حاتم؟ كيف أنت؟
- أقعدني المرض عن العمل وعن المجيء إليكم.

ثمّ مادّا عينيه نحو الكونتوار:

- أصبحتهم ثلاثة فقط؟
- ثلاثة و لكن فاتن ستأتيك الآن.

فهم التّاكسيست أمريـن: أوّلهـا أنّ المرض بعثره وشوّهـه وأذهب لحمه وضيـاءه واتّقاد عينيه أو كأنّما أخرجه في نسخة بعيدة جدّا عن أصله إلى درجة أنّ سعيدة لم تتعرّف إليه إلاّ بعد مشقّة وثانيهما وهو المهمّ أنّ فاتن هنا... لم تهجّ

إلى مكان آخر ولم نترك المدينة ولم تختف من الحانة وليست هي الفتاة المتغيّبة اليوم.

هذا مبدئيّا كاف ومطمئن جدّا... يكفي أنّهما الآن تحت سقف واحد في فضاء واحد. ولكنّ السّؤال الذي أخذ يلحّ عليه هو كيف سيتقابلان؟ هل ستقبل اعتذاراته؟ هل ستصدّق الوعود التي جاء بها؟ وقبل هذا وذاك: هل ستمنحه فرصة للكلام ؟ هل ستدعه يتحدّث عن انتصاره على أهله وعن تحكيمه رأيه وحده في مسألة الاختيار والزّواج؟ هل ستدعه يقول لها : لقد تجاوزنا كلّ الذين وقفوا ضّدنا ... استعدّي ...غدا يوم جديد... غدا نحن ولا أحد.

-20-

قال رفيق لليلى:

- قد تعود إلينا سعاد و قد لا تعود، ورأيي أنّ التّعب قد نال منكنّ كثيــرا وأنّكنّ أصبحتنّ قاصرات عن الإحاطة بكلّ الطّلبات. ما رأيك في إضافة نادلة أخرى أنتدبها على مسؤوليّتي الشخصيّة ؟

تعرف ليلى عن رفيق هذا أشياء كثيرة. تعرف عنه خلافاته المستمرّة مع زوجته وحبّه المفرط للخمر والمال وللنّسـاء وتعرف عنه حسن علاقاته مع زبائن الحــانة وحبّه الظّاهر لصاحبها وابن صاحبها وتعرف ليلى أيضا أنّ رفيقا حاول مرارا أن لا تربط هي وصاحباتها علاقات مع الحرفاء أو المعجبين من داخل الحــانة وخارجها إلاّ عبره حتّى يناله شرف الوساطة وأرباحها...

حاول رفيق أن يلعب دور الوسيط بين النّادلات والباحثين عن اللّحم الطريّ بمقابل ولكنّ الفتيات الأربع لم يكنّ في حاجة إلى وسيط... وسيطهنّ كان جمالهنّ وقدرتهنّ على الإغراء وما ينلنه من عطايا وهدايا قبل المواعيد وأثناءها وبعد انقضاءها.

وتدرك ليلى أكثر من هذا وذاك أنّ رفيقا اختار الوقت المناسب ليدلي باقتراحه القاضي بانتداب فتاة أخرى، فليلى مقبلة على مرحلة جديدة ولعلّ من مصلحتها أن ترضي كلّ الأطراف الفاعلة وتُسكت كلّ الاحتجاجات وتجمع حولها النّاس... ليلى في حاجة رغم المكانة التي أصبحت تحظى بها لدى سي منصور ورغم أنّ مشروعها معه على وشك الإنجاز إلى أن تجمع حولها كلّ الأطراف المؤثّرة حتّى لا يحتجّ صوت ولو كان ضعيفا.

لم تكن في حاجة إلى أن تستشير منصورا لأنّها تدرك أنّه لن يعترض على اختيار ذهبت إليه أو أمر أصدرته أو طريقة عمل انتهجتها بل إنّ ليلى انتبهت إلى أنّ إدماج فتاة أخرى سيدخل على الحانة حركيّة جديدة وأنّ الألسن ستجري زمنا بذكر تلك الفتاة، تصفها و ترغّب فيها إلى أن يتضاعف عدد الوافدين فتنمو نسبة استهلاك الخمور...

- أراها أوّلا، قالت ليلى كالمشترطة.
- سترينها وستعجبين بها وستعودين إليّ لتشكريني على غيرتي على الحانة.

ضمنت ليلى بمجرّد ما بان الفرح على رفيق أنّها أخذته إلى صفّها وأنّه لن يتجرّأ ومشروع زواجها من منصور يبلغ مرحلته الأخيرة أن يلمّح أو يصرّح برأي قد يغيّر وجهة العريس أو يدفعه إلى إعادة النّظر...

ويدرك رفيق أنّ موافقة ليلى على مشروعه ستمنحه ضوءا أخضر لا يقف أمامه أحد وأنّ توظيف الفتاة التي اختارها سيدرّ عليه أرباحا هو في حاجة أكيدة إليها هذه الأيّام.

يستعدّ رفيق منذ سنوات لفتح حانة لحسابه الخاصّ... ما زالت أمامه ترتيبات قليلة ومازال عليه أن يعدّ كميّة أخرى من السّيولة ثمّ ينطلق المشروع. المحلّ جاهز أو شبه جاهز... والرّخصة القانونيّة في طريقها إليه... وأموال التّمويل على وشك أن تكتمل وتجهيزات المحلّ ستصبح متوفّرة بعد مدّة من تداول حرفـائه وأصدقائه الكثيرين على الفتاة الجديدة التي وقع عليها اختياره.

لرفيق هذا جراية قارّة محترمة ومنح لا يتخلّف عن إسدائها إليه بمناسبة ودونها مشغّله وله ممّا ينال الفتيات من عطايا نصيب، ولرفيق موارد أخرى ، لديه مجموعة من الزّبائن القّارين الذين لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن ما يتناولونه يوميّا والذين يسعفهم بأن يشربوا خمرهم بالنّسيئة مقابل مبالغ إضافيّة يوظّفها على كلّ واحد منهم... ولرفيق مورد ماليّ آخر لا يعلمه إلاّ الله و اثنان من خلقه : رفيق ذاته ومزوّد الحانة بالخمور. فمنذ انتبه البارمان إلى ما تدرّه أرباح الخمور وهو يفكّر في سبيل إلى الانتفاع ببعض تلك الأرباح. لم تكفه جرايته ولا منح سي عبد الله ولا الفوائد الإضافية على حرفاء النّسيئة ولا ما تجود به عليه فتيات الحـانة... لم يكفه كـلّ ذلك فظلّ يفكّر ويجرّب ويتردّد إلى أن اهتدى إلى حلّ لم يخبر به أحدا : اتّفق مع مزوّد الحانة على أن يبيعه كلّ مرّة يجيء ليملأ المخزن كمّيّة إضافيّة يشتريها منه بسعر الجملة ويبيعها بثمن البيع العموميّ فيحقّق ربحا إضافيّا مضمونا لا ينتبه إليه سي عبد الله ولا ابنه ولا أيّ واحدة من الفتيات وفوق ذلك كلّه فرفيق يحتفظ دائما بكمّيات من أصناف مختلفة من الخمور يبيعها في منزله لحرفاء معيّنين خارج أوقات العمل أي بعد منتصف اللّيل.

ليلتها لم يعد بعد إغلاق الحانة إلى بيته حيث زوجته وابنته إنّما إلى بنايته الجديدة التي يعتزم تحويلها إلى مطعم وحانة. كانت تنتظره فيها زوجته الأخـرى التي ربط بينه وبينها عقد عرفيّ والتي استشار بخصوصها ليلى فلم تشترط سوى أن تراها.

جاءت المدينةَ منذ سنوات ثلاث لتدرس بجامعتها إحدى الشّعب العلميّة. وهي لا تزال رغم السّنوات الثّلاث مستمرّة بالسّنة الأولى من التّعليم العالي لم تسعفها إمكانيّاتها بأن تتخطّاها إلـى الدّرجة الموالية رغم أنّ رغبة عنيفة تسكنها فـي إنهـاء دراستها والالتحاق بأيّ عمل يخرجها ويخرج أهلها من دائرة الجوع الكافر..

يومها كانت المحطّة عاجّة بخلق كثير جاءت به إليها عطلة عيد الأضحى التي ستمتدّ على ثلاثة أيّام. خلق فاضوا على كراسي القطـــــارات والحافلات فجاؤوا يتدافعون للظّفر مقاعد داخل سيّارات الأجرة للوصول إلى ذويهم في أقرب ساعة ممكنة... منذ ساعات مريرة، وهي تنتظر أن تفوز بمكان في سيّارة متوجّهة إلى مدينتها... لم يكن في جيبها غير معلوم الرّكوب لا يزيد ملّيما ولم يكن معها بالمحطّة أيّ من صديقاتها اللاّتي اعتادت أن تتّكئ على جيوبهنّ أحيانا لتأمين بعض ما يتطلّبه السّفر والانتظار من أكل لسدّ الرّمق وماء لإطفاء العطش.

كانت على باب الدّخول تقلّب عينيها بين المسافرين اللاّهثين وراء السّيّارات وبين السّيّارات الوافدة على المحطّة تبحث في أعلاها عن لافتة باسم مدينتها... ساعتها كان رفيق قد ودّع صديقا له اتّخذ طريقه نحو العاصمة ثمّ اتّجه إلى باب المحطّة الكبير ليمتطي سيّارته من جديد.

التقت عيناهما فجأة فلم يخلّف ذلك اللّقاء في طالبة الجامعة شيئا ذا قيمة ولكنّه بعثر البارمـان وبعث فيه فضولا عنيفا. تجاوزها قليلا.. ثمّ عاد إليها... ثمّ

عنّ له أن يتركها ويتّجه إلى سيّـارته... ولكنّه بمجرّد وصوله إلى السّيّارة قرّر أن يعود. كانت لا تزال واقفة موقفها ذاك... تقلّب عينيها في الدّاخلين والخــارجين ويقلّب الدّاخلـون والخارجون عيونهم في فتنتها... أحسّ رفيق أنّ سحرا يجذبه إلى هذه الفتاة ويدفعه إليها... مشى نحوها وجِلا إلى أن وقف على مرمى ريشة منها ثمّ بادرها بالسّؤال:

- الآنسة مسافرة؟
- إلى .....لأقضّي عطلة العيد بين أهلي.

قال رفيق في نفسه:

- هذه خطوة أولى مرّت بسلام.

ثمّ غالب تردّده و ألقى بين يديها عرضه المغري:

- سيّارتي على بعد خطوات منّا وأنا متّجه للتّوّ إلى تلك المدينة. إن شئت أحملك إلى هناك.

لم تردّ عليه. لم تستطع أن تردّ عليه ولا أن ترفع عينيها إلى عينيه. لم تُبد ما يدلّ على أنّها رفضت عرضه المغري ولم يبد عليها أنّها قبلته. فكّرت في أنّ ركوبها إلى جانب رجل غريب مجـازفة فهمّت بأن تعتذر له بأدب و تتركه إلى داخـل المحطّة حيث جموع غفيرة من المنتظريـن والمنتظرات... ثمّ فكّرت في ساعات الانتظار التي مرّت وفي السّاعات الأخرى التي قد تضطرّ لقضائها قبل أن تظفر بمقعد إلى مدينتها... وفي جيبها الذي ليس فيه غير معلوم السّفر لا يزيد ملّيما... وفي اللّيل الذي إن حلّ قبل أن تحلّ سيّارة أجرة سيكون أنكد من صحبة رجل غريب ساعة في وضح النّهار.

فكّرت أن تقترح عليه أن يركب معها آخرين قاصدين إلى نفس المدينة ، سيكون ذلك أرحم بالتّأكيد ... ولن يكون هناك داع للخوف ولا حتّى للحذر

ولكنّها انتبهت إلى أنّه ليس من حقّها أن تشير عليه بمن يُركب معه ولا بما يفعل بسيّارته...

قال لها :

- أنا منطلق اللّحظة إلى مدينتك.

وهمّ بسيّارته... فجاءه صوتها خافتا منكسرا كأنّه يأتي من أعماق بئر:

- امض. سأمشي وراءك.

كان الوقت الفاصل بين المدينتين يقدّر بساعة واحدة ولكنّ رفيقا استطاع أن يمطّطه إلى ثلاث ساعات كاملة تخلّلتها استراحة تناولا فيها لحما مشويّا عند شوّاء منتصب على قارعة الطّريق.

تلك السّاعات الثّلاث كانت كافية لربط التّعارف وتأصيل العلاقة بين رجل خمر ونساء باحث عن المتعة وفتاة ليس لها من كلّ الدّنيا إلاّ الفتنة وسوء الحظّ... بين رجل لا يدعوه شيء إلى التّمسّك بزوجته سوى شفقة على ابنته وبين فاتنة يشغلها جوع عائلتها وجوعها ورسوبها المتتالي وانسداد الآفاق أمامها... عرف رفيق أنّ هيفاء تتحدر من عائلة معدمة وأنّ أباها طلّق أمّها من سنيــن وأنّ أمّها تعيش من خدمة البيــوت... وعرفت هي أنّ الرّجل مقتدر وأنّ لديه أحلاما كثيرة.

قال لها:

- اسمعيني جيّدا. لم آتك اللّيلة سوى لتسمعيني.
- فقط؟

مهمه رفيق ثمّ أضاف:

- أوّلا، مبروك. غدا تباشرين عملك الجديد. سيدرّ علينا هذا العمل ربحا محترما. وليس عليك سوى أن تلتزمي بشرطين اثنين.
- أوّلهما أن أنقطع عن الجامعة وأنصرف إلى العمل.

- وثانيهما أن تطيعيني طاعة عمياء... سأخصّص لك مربّعا تتحرّكين فيه. كوني لطيفة مع الزّبائن ودعي كلّ طلباتهم الأخرى تمرّ عبري واستعيني على تخليص أمّك من خدمة البيوت وإخوتك من ضنك العيش وعلى تكديس الثّروة بالكتمان و الطّاعة.

tél. +216 98 603 987

Révisé
20/03/2021 | 17:09

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

-21-

وقفت نافخة صدرها فخرا... فاتحة عينيها عن آخرهما اندهاشا، محاولة قدر ما تستطيع أن تسيطر على فرحتها بهذا الإنجاز الجديد الذي استقام ماثلا أمامها بعدما انتظرت شهورا ريثما ينتهي منه البنّاؤون والمزوّقون واختصاصيّو الخشب والإضاءة والدّيكور.

نبت في ذهنها فجأة ذات ساعة سحر وهي ممدّدة على فراشها تنتظر أن يأخذها من إرهاق ذلك اليوم وتلك اللّيلة النّوم... فلم تمرّ ظهيرة اليوم الموالي حتّى بدأت أولى خطوات الإنجاز. اتّصلت بمهندس معماريّ ووقفت معه على المكان ثمّ بمقاول بناءات شرحت له المخطّط المزمع إتّباعه ثمّ شرعت تتابع التّنفيذ خطوة خطوة إلى أن استقام أمامها على الشّكل الذي تمنّته.

جناح إضافيّ مجانب للقاعة الكبيرة للحانة غير أنّه يختلف عنها في كلّ شيء. لم يكن همّ ليلى أن توسّع المساحة ولكنّ همّها كان أن تنوّع الخدمـــات وتطوّرها... تمتدّ ساعات عمل الجناح الجديد من الرّابعة عصرا إلى ساعات الفجر الأولى... ويؤمّن فيه الخدمات صنفان من الفتيات: فتيات مهمّتهنّ التّوزيع وتوفير ما يطلب الحرفاء وأخريات مهمّتهنّ مؤانسة الزّبائن ومجالستهنّ... على أنّ حضور هذا الصّنف الثّاني لا يمنع أيّ حريف من أن يجلب من الخارج رفيقة له تؤانسه وتجالسه وتشاركه كؤوسه وسجـائره وليله و نزوته.

والجناح الجديد مظلم أو كالمظلم... يسبح في ظلام لا تبدّده غير فوانيس خافتة جدّا كعيون شبه عمياء مبثوثة في سقفه العالي ترسل باحتشام ضوء أزرق لا يكاد يكفي لغير الهداية إلى سبيل الخروج أو باب بيت الرّاحة أو موقع الكونتوار... ليس سهلا أن تتحرّك بحريّة داخل الجنـاح الجديد وليس متاحا أن تتعرّف على من يحتلّون طاولات بعيدة عنك أو قريبة منك أو أن تشـاهد حركاتهم ومـا يفعلون... الضّوء خـافت جدّا والموسيقى هادئة جدّا وكلام الزّبائن همس لا يكاد يسمع.

صحيح أنّ الجناح الجديد ليس ممنوعا على أحد ولكنّ الذين يتردّدون عليه ليسوا كثيرين... الذين يجيؤونه هم المقتدرون على دفع ضعف ثمن الشّراب في الصّالة الكبرى والذين لديهم رغبة في أن يجمعوا بين لذّة الشّراب ولذّة الأنثى والذين هم قادرون على الإنفاق على مرافقاتهم وعلى توفير كلّ أو جلّ طلباتهنّ .

في الرّكن الأيسر من الكونتوار زاوية تتولّى فيها فتاة بيع الحرفاء ما يحتاجون إليه من علب سجـائر وبطاقات شحن ومثلّجات وشـوكولاطة رفيعـة وجبن مستورد ومكسّرات وأشياء أخـرى... ويقوم بالرّبط بين حرفاء الظّلام

والعالم الخارجيّ شابّان مهمّتهما قضاء شؤون الزّبائن التي تستوجب انتقالهم إلى الخارج...

أحسّت ليلى بانتشاء كبير لما بدأ يؤمّنه هذا المولود الإضافيّ من أرباح فاقت توقّعاتها بكثيـر ولما يسود جوّ العمل فيه من نظام وأمن. في الجنـاح الجديد ، لا مجال للخصومات ولا للصّياح ولا للعربدة... شرب هادئ ومسّ وجسّ وتقبيل ووشوشات وسهر إلى الصّباحات ودفع بلا حسـاب... وأحسّت ليلى بانتشاء لما لمسته من أفضال لجناح الظّلام على البار القديم فقد تقلّص الاكتظاظ وتناقص الهرج وأصبح السّكارى هنا وهناك ينعمون بحريّة أكبر.

يؤمّ الأوّل الآن الذين يجاهرون بالسّكر ويشربون ليتكلّموا ويعربدوا ومنهم حتّى من يشرب بالنّسيئة وفيهم من يملأ بطنه خمرا ثمّ يستلّ نفسه ويغادر تاركا ثمن ما شرب متخلّدا بذمّة إحدى النّادلات... ويؤمّ الثّاني زبائن مقتدرون محترمون لا يستطيعون أن يفصلوا بين الخمر والنّساء، يريدون أن يشربـوا بمشاركة فتـاة أو أكثر... يتبادلـون معها حديثا قد يكون بلا معنى وحركـات وقبلات... يدفعون ثمنها غاليا.

ولا تكلّف فتيات الأنس ميزانيّة الجناح المظلم شيئا فهؤلاء الفتيات يشربن على حساب مضيّفيهم الذين يدفعون لهنّ أيضا ثمن المؤانسة والمرافقة هدايا وأموال وفكاك أزمات كثيرة.

شعرت ليلى أنّها بحجر واحد قد أصابت عصافير كثيرة ، أضافت إلى البار الأوّل واحدا آخر ورفعت في المداخيل بنسبة عالية ونظّمت العمل بكلّ من القاعة الكبـرى والجناح الجديد وتركت لكلّ صنف من الزّبائن حريّة الاختيار بين حانة يرى فيها كلّ شيء ويسمع و أخرى لا تـرى فيها إلاّ هيـاكل زرقاء ولا يسمـع فيها إلاّ همس ووشوشات.

وشعرت ليلى أنّ منصورا طار ابتهاجا بالمشروع الذي اقترحته عليه فعارضه أوّل مرّة وشكّك في نجاحه وفي نتائجه وأعرب عن خوفه من بلوغ الخسارة من حيث أراد أن يصيب الرّبح... شعرت أنّها تفوّقت عليه وأنّه لن يكون بمقدوره أن يعارضها في أمر آخر أو يجادلها فيما تقدم عليه.

عصافير كثيرة ضربتها ليلى بحجر واحد . حرفاء قدامى وحرفاء جدد ونسبة مرابيح عالية وراحة بال ومنصور.

تؤمن ليلى كثيرا بأنّ " الفلوس تجيب فلوس" وتؤمن أيضا بأنّ الرّبح لا يتأتّى دون محرّك ومحرّك الرّبح ليست الرّغبة فيه وليس الجري وراءه... ذلك كلّه قد لا يكفي. محرّك الرّبح هو العقل السّليم... لنفسها كانت تقول " الرّبح الكثير في العقل السّليم".

لذلك يدور بذهنها دوما أنّ المشاريع لا يجب أن تتوقّف وأنّ أيّ مشروع لا يؤدّي إلى مشاريع أخرى أكثر نجاحا هو مشروع فاشل وأنّ أيّ أموال لا توصل صاحبها إلى أموال أخرى هي أموال حرام...

جالت بعينيها في أرجاء البناية الجديدة... لم يكن الحرفاء قد بدأوا بعد يتوافدون ... وقفت وراء الكونتوار ثمّ تجوّلت بين الطّاولات، راقبت الثّلاّجات وزاوية السّجائر والجبن والشّوكولاطة ثمّ جذبت كرّاس الحسابات وألقت نظرة على كمّيّات الاستهلاك وعلى نسبة المداخيل وأجرت مقارنة بين استهلاك جماعة الضّوء والهرج وما يستهلكه حرفاء الظّلمة الزّرقاء والهمس الذي لا يكاد يسمع وبين المداخيل هنا والمداخيل هناك فعاودها الفخر بما اهتدت إليه والاعتزاز بما قادها إليه تفكيرها الصّائب دائما.

ضحك منصور و هو يراها تبتسم و هي في غطيط النّوم... اقترب منها وشرع يقبّلها... أفاقت على وقع قبلاته على شفتيها وحرارة يديه المتنقّلتين بين شعرها و كتفيها.

قال لها:

- حدّثيني عن هذا الحلم الذي أضحكك وأنت نائمة.

فردّت عليه ضاحكة:

- لن يظلّ حلما . ستراه قريبا واقعا ماثلا أمامك.

وعادت إلى النّوم.

-22-

تدرك ليلــى أنّ أيّ وافدة جديدة لن تستطيع أن تسدّ الشّغـور الذي خلّفته سعاد ويخيف ليلى كثيرا أنّ ذهاب فاتن المزمع في غضون شهر أو أقلّ سيترك فراغا آخر قد يكـون خطرا على سير العمـل وعلى مستويات التّوزيع وعلى مدى إقبال الزّبائن. سعيدة وهي وحدهما لن تقوما بأيّة حال مقام أربعة... صحيح أنّها سمحت لرفيق بانتداب نادلة جديدة ولكن، هل تستطيع هذه الجديدة أن تفهم أصول الشّغل وأخلاقيّــات المهنة وتصون الحانة وتغار عليها؟

ليلى تدرك منذ الآن أنّها لن تستطيع ذلك حتّى لو أوصاها به رفيق وشدّد على الوصاية.

ليلـى نفسها ، لم تعد مستعدّة للعمل كنـادلة توزّع القوارير وتفتحها ثمّ تجمّعها في صنـاديق وتعود بها إلى الكونتوار ثمّ تتولّى تنظيف أرضيّة الحانة وترتيب الطّاولات وإفراغ منفضات السّجائر وغسل الصّحون والكؤوس... هي تقوم بذلك الآن احتراما لطبيعة المرحلة ومتطلّبات الظّرف... بعدها، تفكّر ليلـى

أن لا تهتمّ بغير إدارة الحانة ، تنظر في الطّلبات وتراقب المداخيل والمصاريف وتدفع جرايات الأعوان وتقوم بإحصائيّات حول نسب الرّبح ونسب الإقبال. منصور نفسه بات يلحّ عليها أن تكتفي بالإشراف وتدع التّوزيع وفتح القوارير للأخريات.

قال لها :

- اتركي الصّالة للأخريات وأنّثي مكتب المرحوم تأثيثا جديدا واتّخذيه إدارة تشرفين منها على الحانة كلّها وأرجوك، لا تعوّلي عليّ كثيرا هذه الأيّام، لديّ مواعيد ومشاغل لا حصر لها.

رفضت ليلى أن تتخلّى عن الصّالة وقبلت مهمّة المراقبة والإشراف في انتظار أن تعوّض نفسها بنادلة جديدة قادرة على أن تسيّر مربّعا من مربّعات الحانة الأربع. بل إنّها أكّدت لمنصور أنّ حضورها هذه الأيّام ضروريّ جدّا حتّى تتمكّن من مرافقة الفتاة الجديدة في خطواتها الأولى وتحكم على أدائها حكما قريبا من الصّحّة... والواقع أنّ ليلى لا تريد مراقبة الفتاة في حدّ ذاتها إنّما رفيقا من خلالها ومن خلال علاقته بها وأثر ذلك كلّه على نسبة الإقبال والتّوزيع.

أفردت لها مربّعا هو نفسه المربّع الذّي كانت تتحرّك فيه قبلها سعاد وذلك حتّى يعود إلى كلّ نادلة من الأخريات زبائنها وحتّى ينحصر إغواء هذه الجديدة في حرفائها دون غيرهم... ثمّ بدأت تراقب معدّل توزيعها ونسب دخلها دون أن تهتمّ كثيرا بما بدأت تربطه من علاقات وما تعد به من مواعيد وما تستشير فيه رفيقا... تلك الأمور لا تعني ليلى كثيرا. المهمّ هو سير العمل ومقادير الأرباح.

كانت الفتاة الجديدة ذات الثّلاثة والعشرين عاما على درجة من الفتنة استطاعت بها أن تدخل بلبلة في الحانة كلّها وفي مربّعها الذي تتحرّك فيه على

وجه الخصوص ... طويلة القامة ممتلئة البدن ... عيناها بين الزّرقة والخضـرة وشعرها يغطّـي كتفيها ويلامس الخطّ الفاصل بين الظّهر والرّدفين. نصف صدرها عار كأنّها تتعمّد أو كأنّ رفيقا يتعمّد أن يسيل به لعاب السّكارى قائلا لهم عبر ذلك العراء: هذا بعض ما عندنا، هذه دفعة ذوقوها مجّانا وعلـى من يريد منكم أن ينعم بأشيـاء أخرى أن يتقدّم ... ويدفع... أدخل مجيء هيفاء حيويّة على الحانة واكتظاظا في المساحة التي تقوم بخدمتها... ولم يفت ليلى أنّ تنتبه بمـرور الوقت إلى أنّ جيد الفتـاة الذي كـان أملس ومعصمها الذي كان حافيا وأصابعها التي كانت عارية قد بدأت تكتسي ذهبا خالصا لمّاعا من الصّنف الرّفيع... لاحظت ذلك بعدما انتبهت إلى أنّ الفتاة رفضت عرض الإقامة مع زميلتها مصرّة على مرافقة رفيق كلّ ليلة إثر إغلاق الحانة يصحبها دائما ثالث أو ثالث ورابع... كلّ ذلك لم يزعج ليلى في شيء. فليلى أقلعت مذ عزمت على أن تكون لمنصور وحده واستطاب هو عزمها ذاك عن بيع روحها للمشترين مقتنعة بأنّ ولاءها إلى منصور وحده وانصرافها إليه سيدرّ عليها أكثر ممّا تدرّه علاقاتها مع كلّ حرفائها مجتمعين، ولكنّ ما أزعجها أمر آخر لم تكن لتنتبه إليه لولا مجيء هيفاء... فقد لاحظت أنّ نسبة التّوزيع عالية جدّا وأنّ مقادير الأرباح لا تتوافق مع تلك النسبة، ولكنّها لم تستطع أن تجد لذلك تفسيرا ولا أن تتّهم أحدا ولا حتّى أن تنقل ما لاحظته إلى منصور ، إنّما اكتفت بالمراقبة وتسلّحت بالشّكوك سبيلا إلى إدراك حقيقة تلك المفارقة إلى أن وقفت بنفسها على السّرّ.

يومها قالت لرفيق:

- سأترك لك أمر الحانة ريثما أعود من قاعة الحلاقة: أرجوك ، انتبه لكلّ شيء.

وذهبت فعلا إلى محلّ قريب اعتادت أن تصفّف فيه شعرها ولكنّ المحلّ كان مقفلا فعادت أدراجها سريعا ومضت في اتّجاه الكونتوار. لم يكن رفيق واقفا وراءه كالعادة ولكنّ صوته كان مسموعا... كان مختفيا تحت الكونتوار يخاطب شخصا مّا عبر الهاتف ويقول:

- لا تنس أن تضاعف الكميّة الخاصّة بي ابتداء من المرّة القادمة .

- .....

- لا لا لا . دع كمّيّة أصحاب الحانة على حالها .ضاعف فقط البضاعة التي أقتنيها منك لحسابي الخاصّ.

لم تعد ليلى في حاجة إلى أن تسمع كلاما آخر أو كلاما أكثر. تسلّلت إلى الطّاولات تنظر في طلبات أصحابها حتّى رأته يطفو على سطح الكونتوار فاتّجهت إليه ضاحكة كأنّها لم تضبطه منذ حين يخطّط لسرقات أخرى.

قال لها :

- صحّة.

فردّت عليه و هي تشير إلى شعرها:

- Dommage, le salon est encore fermé

أشعلت سيجارتين متتاليتين... أحسّت من خلال أولاهما أنّها تنفث عبر الدّخان شحنة غضبها على رفيق وأحسّت من خلال الثّانية أنّها تتنفّس الفرح لأنّها وجدت أخيرا تفسيرا لتلك المفارقة التي أقضّت مضجعها وأرّقت ليلها وعبثت براحتها.

ظلّت تنتظر على جمر مجيء شاحنة التّزويد... يومها كانت ومنصور لها بالمرصاد... انتظرا إلى أن همّ المزوّد بالانصراف ثمّ تدخّلا في الوقت المناسب.

أحصيا الصّناديق الجديدة وقارناها بالكميّة التي اعتادت الحانة أن تحاسب وفقها المزوّد ومن بعده رفيقا والنّادلات وضبطا الفرق بين الكمّيتين والفرق بين المبلغ الذي تسلّمه رفيق ليسلّمه إلى الموزّع والمبلغ الذي تسلّمه الموزّع فعلا.

حاول رفيق أن يقول شيئا فتيبّست على شفتيه الكلمات ولم يستطع حتّى أن يداري جريمته بابتسامته الصفراء التي اعتاد أن يستنجد بها في حالات التّورّط القصوى.

-23-

تأمّلت وجهها في مرآة كفّ صغيرة، ثمّ في مرآة أكبر ثمّ وقفت أمام المرآة الحائطيّة الكبيرة تتأمّل نفسها في فستان الفرح الأبيض، أحاطت بها الحلاّقة ومساعدتها تسويّان ما انكمش من ثوبها الرّجراج المتدلّي واقتربت منها ليلى تراقب تفاصيلها الدّقيقة وتجري على تسريحتها وماكياجها اللّمسات الأخيرة...

داهمها شعور بأنّ قلبها سينطّ من الفرح... ثمّ استقرّ فيها ذاك الشّعور إلى درجة أن وضعت يدها على مكانه في صدرها تتثبّت إن كان فيه شرخ قد

انفتح... ثمّ جذبت إليها ليلى وضمّتها إليها ضاغطة نصف صدرها الأيسر على جانب صاحبتها الأيمن منعا لذلك القلب من الخروج.

أجهشتا بالبكاء معا وأجهشت معهما الحلاّقة بالبكاء برهة من الزّمن ثمّ قطع ذاك النّشيج صوت زغرودة أرسلتها في صدر اللّيل مساعدة الحلاّقة. تلت تلك الزّغرودة زغاريد أخرى ثمّ سمعن وهنّ يزغردن منبّه السّيّـارة في الخـارج يستنفـر العـروس ويدعوها إلى عريسها المنتظر على جمر أن تهلّ عليه...

لم يكن مع ذلك العريس أحد . جاء وحده، في قصر البلديّة أيضا حيث تمّ عقد القران كان وحده... تبرّع اثنان من روّاد المقهى المقابل للبلديّة بالشّهادة بصحّة ذلك الزّواج وتبرّعت ليلى التي كانت تواكب الحدث بإطلاق زغرودة عالية إيذانا بانتهاء إجراءات عقد القران... لم يكن معه أحد... جاء وحده. هي أيضا لم يركب معها أحد، ركبت وحدها... وانطلقت بهما السّيّارة الصّفراء في اتّجاه الشّقّة التي اكترياها داخل العمارة المواجهة لبار الهناء... الشّقّة الجديدة التي ستحتضن فاتن عروسا تطلّ على الغرفة القديمة التي آوت إليها مدّة العمل بحانة سي عبد الله الأحمر نادلة وقائمة بأعمال أخرى.

رغم ما ينتشر فيه من فرح ورغم إحساسه بأنّه بلغ أخيرا مبتغاه وأنّ فاتن أصبحت منذ اللّيلة له وحده، لم يستطع العريس أن يتجاهل الغضب المشتعل في رأسه لتخلّي أهله عنه في يوم يقالعنه كثيرا إنّه من أجمل أيّام العمر. ثمّ زاد هذا الغضب اشتعالا عندما أقسمت أمامه عروسه أنّ كلّ علاقاتها السّابقة لم تكن غير مجرّد صداقات عابرة اقتضتها طبيعة العمـل ولم تصل أبدا إلى أخـذ وعطاء وتفريط في أشياء عزيزة. بمجرّد ما أتمّت هي قسمها نما لديه يقين بأنّ أهله بـالغوا كثيرا حين رفضـوها أوّل مرّة وحين قبلوها بعد ذلك لمجرّد بعثه حيّا.

قال هو في نفسه:

- الحمد لله. شكرا لك يا ربّ.

و قالت هي في نفسها:

- شكرا لك يا حاتم. أخيرا جئت لتخلّصني من هرج السّكارى وتكون آخر العابرين. أخيرا جئت لتمحو بمجيئك كلّ الذين عبروني ومرّوا منّي واستأجروني مددا من الزّمن. نما فيّ قبل أن أزفّ إليك شعور بالخوف من أن تقف يوما تحاسبني على ماض مضى ولكنّ ليلى أسكتت خوفـي و قالت لي:

- هل لدى حاتم هذا دليل على أنّك عاشرت قبله آخرين؟ ما لديه كلام فـي كلام وما أكثر كلام الرّجال عن النّساء. ما لديه كلام ستمحوه سيرتك معه وإخلاصك نحوه.

حمدا لله كثيرا ثمّ استسلما لنوم كنوم الموتى. نام حاتم وفـي قلبه فرح بعروسـه وغضب على أهله ونامت زوجته وفي قلبها فرح بنفسها وحنين إلى أمّها وابنتها. أنعشها كثيرا أن استحضرت أنّها اشترطت على عريسها أن يخطبها من أهلها وأن يأخذها منهم فانتشر في قلبها الذي كان قبل ساعات سيقفز إلى الخارج دفق من الارتياح...

رجعت إلى مدينتها وأخبرت أهلها باعتزام التّاكسيست خطبتها وباستقالتها من العمل ووعدت أنّها ستلحق بها قريبا أمّها وابنتها. ثمّ لحق حاتم بها، خطبها من هناك ثمّ جاء بها إلى دار سي منصور لتعدّها ليلى للعرس ثمّ أخذها إلى قصر البلديّة ومن ثمّ إلى قاعة الحلاّقة ثمّ إلى هذه الشّقّة المواجهة للذّكريات القديمة.

وداعا قوارير الجعّة ! وداعا دخان الزّبائن وهرجهم ولغطهم ولغوهم... وداعا سهر اللّيالي ... وداعا للعابرين.

سلّمها منصور منحة نهاية الخدمة وتمنّى لها زواجا سعيدا وفي نفسه همّ للفراغ الذي أحدثته. ووضعتها ليلى بين أيادي حارزات حمّام الأنس وأصابع الحلاّقة ليتمّ إخراجها إخراجا جديدا وتبعث للتّاكسيست في خلق آخر.

قال لها :

- ينبغي أن تنسي تماما أنّه مرّ عليك حين من الدّهر اشتغلت فيه نادلة. تلك أيّام مضت. أنا لن أدعك تشعرين بالحاجة أبدا. سيّارتنا الصّفـراء تدرّ علينا ذهبا... وأنا تركت أهلي وجئت إليك... فعيشي لنا. لي و لنفسك.

وعدته فاتن خيرا وبدأت تتأقلم بفرح مع الحياة الجديدة... شؤون بيت وشؤون زوج وشؤون خاصّة ورقم هـاتف بكر لم يعرفه قبلها أحد يربـط بينها بينه وبينها و بين أمّها وابنتها والحلاّقة وصديقاتها المخلصات.

عندما كانت تداعبها من حين لحين ذكريات الحانة كانت تزيل السّتارة وتقف وراء البلّور فتواجهها غرفتها القديمة وذكرياتها فيها وتقع عيناها على الباب الكبير... فتقضّي ساعات تشاهد دخول السّكـارى وخروجهم وتعاقب باعة الفـول والحمّص والسّجائر والرّؤوس المصليّة... تبحث في وجوه الدّاخلين والخارجين عن عابرين قدامى عرفتهم داخل الحانة وخارجها فلا تكاد الملامح تسعفها بشيء ممّا تختزنه الذّاكرة. يلحّ عليها أحيانا سؤال:

- لماذا لا تعود إلى فتح القوارير؟
- لم لا تكون زوجة ونادلة؟
- لم لا تكون للبيت وللعمل؟
- لم لا تسهر على خدمة الحرفاء في الحانة وعلى راحة زوجها في البيت؟
- لم لا يكون لها دخل قارّ تعين به زوجها ريثما يهيّئان لنفسهما بيتا على ملكهما بدل أن يدفعا كلّ شهر معلوم الكراء؟

- ما دام لدى أهله اقتناع بأنّ نادلة في الحانة لا تكون إلاّ مومسا... امرأة لكلّ الرّجال... سريرا لكلّ العابرين ... حرثا يأتيه من هبّ ودبّ أنّى يشاء... فما المانع من أن تعود إلى حيث كانت، تفتح للزّبائن القوارير وتقبض ثمن تلك القوارير وثمن الابتسام وحلو الحديث دون أن ينال الحرفاء منها غير كلام في كلام ، لن يضرّ الكلام بها ولا بزوجها التّاكسيست ولن يسيء إليها و لا إليه.

تلحّ عليها أسئلة كثيرة وتلجّ في الإلحاح ولكنّ تلك الأسئلة تظلّ معلّقة كغيوم تجوب وجه السّماء، أو مرسومة ككتابات طبشور يمحوها مجرّد ارتطام قدمي حاتم بدرجات سلّم العمارة.

-24-

- أنا أيضا أعتزم الرحيل. سأبحث عن رزقي في أيّ مكان آخر.
- رحلت سعاد لظروف قاهرة وغادرتنا فاتن لأنّها وجدت زوجا... أمّا أنت فإلـى أين تذهبين ولمن نتركينني؟
- لا أدري لماذا أصبحت أجد الحانة وغرفتي موحشتين بعدكنّ، لم أعد أستطيع أن أعيش هنا. هجرني النّوم وافتقدت الشّهيّة للأكل ولم تعد لـي رغبة فـي العمل ولا حتّى في رؤية الزّبائن. ليس لي سوى أن أرحل. ليس ثمّة أفق يمتدّ أمـامي ولا أطمع في أن أجد سريعا شغلا آخـر ولكنّي ولم أعد أطيق البقاء.

فـاجأها قرار سعيـدة وأحسّت أنّ المرحلة ازدادت صعوبة وأنّ سمعة البـار ومردوده أصبحا فعلا مهدّدين.

رحلت سعاد فأصبح العمل موزّعا على ثلاثة ثمّ أُطرد رفيق فترك منصور مهامّه ومشاريعه ووقف بنفسه وراء الكـونتوار يقوم مقامه في انتظار أن ينتدب واحدا آخـر ومع رفيق أُطردت طالبة الجامعة التي جاء بها لتفتح أختام القوارير داخل الحانة ولتفتح أقفالا أخرى خارجها. ثمّ تركت فاتن العمل فأصبحت مهمّة السّهر على خدمات الحرفاء ملقاة على عاتق اثنتين بدل أربعة وها هي سعيدة تعتزم التّخلّي نهائيّا عن العمل لتتركها وحيدة بين عشرات السّكارى هي التي كانت تنوي أن تعتزل توزيع القوارير لتشرف على سير العمل من بعيد.

فاجأها قرار صاحبتها ولكنّ الأمر لم يكن يتطلّب كثيرا من التردّد ولم يكن بدّ من التّفكير أوّلا في سدّ هذا الشّغور المستجدّ ... كان تعويض من ذهب من النّادلات يقلق ليلى كثيرا ولكنّ تفكيرها تحوّل فجأة إلى مسألة أخرى. التفتت إلى صديقتها. وضعت عينيها في عينيها. تأمّلتها كأنّها تراها لأوّل مرّة. هي نفسها فاجأتها الفكرة. قبل اليوم لم تراودها ولم تخطر لها على بال. هي هكذا... تنبت الفكرة في رأسها فجأة فلا تتردّد في تحويلها مباشرة إلى حقيقة محسوسة.

قالت لها:

- ما رأيك أن تديري لي قاعتي التي اشتريتها في سوسة؟ سأجهّزها بفساتين الأفراح وسأجعل جانبا منها لبيع العطورات الرّفيعة وموادّ التّجميل المستوردة وسأنتدب لك حلاّقة فلا يبقى لك غير مهمّة البيع والكراء و الإشراف.

فاجأها اقتراح ليلى وأحسّت أنّه سيهيّئ لها انتقالا من نوع خاصّ :

من الجنوب إلى الشّمال...

من الصّحراء إلى البحر...

من الهرج إلى السّكينة...

من العبوديّة إلى السّيادة...

من قوارير الجعّة إلى زجاجات العطر...

من السّكارى إلى العرائس...

- في هذه الحالة لن يكون لديّ سوى هاجس وحيد.
- هاجس السّكن.
- نعم هاجس السّكن.
- سأتوسّط لك في محلّ سكنى مناسب.
- سيتيح لي ذلك أن أصطحب معي والديّ. أؤانسهما ويؤانساني... وأنسيهما وحدة الأعوام الماضية.

أحسّت سعيدة أنّ هذه الحياة الجديدة التي جاءتها تمشي على طبق قد تغيّر فيها أشياء كثيرة... ستعود إلى أمّها وأبيها وقد يجود الحظّ بزوج مناسب. زوج لها وحدها. تكون له وحده. هي تدرك مرارة أن تكون امرأة لرجال كثيرين. ليس أسوأ من أن تكون امرأة قنطرة يمرّ عبرها العابرون لمجرّد العبور... سيّارة للكراء يسوقها من هبّ ودبّ. ليس أسوأ من أن يصبح جسد المرأة متاحا للنّظفاء وللقذرين. لمن أفقده السّكر وعيه ولمن لا تزال فيه بقيّة عقل. لمن يأتيه بعنف المراهقة ومن يأتيه بتعب عقود من السّنين. لمن يأتيه بحثا عن المتعة ومن يأتيه نكاية فيه. لمن يهزّه إليه الشّوق ولمن تجرّه إليه الرّغبة في إذلاله وتحقيره. لمن يأتيه بشبه أدب ولمن لا يعرف أن يأتيه إلاّ دهسا ورفسا... ليس أنكد على امرأة من أن تكون محطّ جميع الأيادي ومجرّد جورب تلبسه أيّ قدم لحين من الوقت ثمّ تستلّ نفسها منه وترميه...

استوت واقفة، جذبت إليها رفيقتها وأخذت تقبّلها ثمّ انتبهت إلى أنّ الفرح أنساها مأزق ليلـى و يتّمها من بعدهنّ فسألتها:

- و أنت ، ماذا ستفعلين؟
- لديّ رقما فتاتين أعرفهما، سأتّصل بهما وسأدعوهما للالتحاق بالعمل حالا. وسيطلب منصور من أصدقائه في حانات المدن الأخرى أن يسعفوه باثنتين... سيصيبني التّعب مدّة ريثما يتمكّنّ من شغلهنّ... ثم سيكون لي أن أكتفي بالإشراف وأنصرف إلى السّهر على راحة منصور وحده .
- و رفيق؟ هل وجدت من يعوّضه؟
- نشرنا إعلانا عبر الجرائد و الانترنات لانتداب مختصّ في التّصرّف والحسابات وأحسب أنّ ردودا كثيرة قد تصلنا اليوم.

تسلّمت سعيدة من منصور منحة نهاية الخدمة ومن ليلـى عربون بداية خدمات أخـرى و ذهبت تودّع فاتن في بيتها الجديد المواجه لحانة سي عبد الله.

- ها. كيف أنت بعد الزّواج؟
- بألف خير. خرجت إلى دنيا جديدة فيها رجل واحد وبيت واحد وسرير واحد ورائحة واحدة... أنا الآن لحاتم وحده وحاتم ليس له سواي. قبله كنت لكلّ الرّجال ولم يكن لي أيّ رجل، كانوا يقضون وطرهم يذهبون، ويشربون خمرهم وينصرفون... يقولـون كلاما جميلا ويقولون أيضا بذاءة و قبحا ولا يتورّعون... وأنت كيف أنت؟
- جئت أودّعك. أنا أيضا تركت العمل بالحانة لأنتقل للعيش بسوسة. اقترحت عليّ ليلى أن أدير لها قاعة للحلاقة وفساتين الأفراح والعطر والماكياج. سأعود إلى تونس أهيّئ أهلي ثمّ سألتقي بعد أسبوع ليلى لنتّفق على التّفاصيل ونبدأ العمل الجديد.

- هذا رائع. أنت أيضا خرجت إلى دنيا جديدة. مبروك! واحتضنتها.

أوصلها منصـور إلى محطّة الحـافلات. اقتطع لها تذكرة ولـوّح لها عبـر النّـافذة بيـده وبابتسامـة و مضى.

ينتشر فيها الآن إحساس لم تعهده قبل اليوم... كـانت تعود إلى العاصمة بفرحـة وألم. فرحة للقيا أمّها وأبيها والاطمئنان عليهما والنّظر في نواقصهما وألم لفراقهما بعد يومين من ذلك اللّقاء. الآن، تعود إليهما عودة أخرى. تعود إليهما لأخذهما إلى حياة جديدة ،تعود إليهما لتعلن لهما موت المسافات ولتصلح ما أفسده الدّهر والجري وراء الخبز وشغل القوارير وخدمة السّكارى وحثالة اللّيل.

توقّفت الحافلة بعد ستّ ساعات من النّوم و الذّكريات وتوقّفت التّاكسي بعد ربع ساعة من التّشويق. أمام الباب كان نفر من الجيران يمشون و يجيؤون ويتمتمون... سألتهم خائفة:

- لا بأس؟

فلم يردّ عليها أحد.

دفعتهم واندفعت إلى الدّاخل فبادرها أبوها قائلا:

- البركة فيك. مسكينة ماتت و هي تلهج باسمك.
- لماذا لم يخبرني أحد؟
- لم تكن مريضة... الموت فاجأها وفاجأنا. كنّا سنتّصل بك الآن. هي لم تمت إلاّ منذ أقلّ من ساعة.

-25-

موسيقى خافتة تنتشر في كلّ أرجاء الحانة الجديدة التي فتحت أبوابها منذ أيّام قليلة والتي سمّاها رفيق صاحبها " حانة التّحدّي".

دخان السّجائر يشكّل سحبا آخذة في التّكاثف شيئا فشيئا.

سكارى يتحاكون نكتا سخيفة ويضحكون لها ضحكا مسترسلا عاليا... آخرون يرفعون عقيرتهم بالغناء وبعض السّكارى يقولون أشعارا لا رابط بينها... قلّة قليلة من السّكارى يتناولون ما بين أيديهم هادئين كأنّهم لا يشربون خمرا ولا يجلسون داخل خمّارة تعجّ بالمنتشين... قوارير شراب تذهب وتجيء... تجيء باردة كالصّقيع مختومة كبنات أبكار ثمّ تروح وقد فضّت أختامها وابتلع ما كان فيها العطش. باعة لـوز طريّ وحبوب فستق وقطع جبن

وعلب سجائر وصحون فول حارّ يجوبون الحانة يعرضون على الزّبائن بضائعهم ويغرونهم بها ويلحّون عليهم باقتنائها.

ينشب فجأة خلاف بين طفلين يبيعان السّجائر... يتبادلان صفعات حادّة على الوجه وركلات على السّاقين. أكبرهما يسقط الآخر بحركة بهلوانيّة سريعة على مستوى السّاق... ينبطح ذلك الآخر أرضا... يكاد يختفي تحت الطّاولات... يسقط صندوقه الكرتونيّ وتتناثر علب سجائره وولاّعاته ومناديله الورقيّة... يتدخّل كهل أنيق ويعيد الطّفل إلى حالته الأولى ويسرع آخرون إلى إعادة ترتيب السّلع في الصندوق الكرتونيّ... ينتبه صاحب البار إلى المشهد فيسرع إلى الاثنين. يمسك الطّفل المعتدي من ذراعه و يجرّه إلى الخارج.

- إيّاك أن تعود ثانية. إيّاك.

ينشب خلاف آخر بين إحدى النّادلات وزبون تجاوز حدود استهلاكه العاديّ فبعثره الشّراب... كانت تتّكئ على طاولة بجانبه تجمع القوارير الفارغة. التفت فوقعت عيناه على مؤخّرتها. كانت شهيّة. شهيّة جدّا في الشّورط الدّجين النّازل إلى أعلى الرّكبتين. وقف واحتضنها من الخلف والتصق بها ضامّا إليه صدرها النّافر ومقبّلا كتفيها.

فزعت الفتاة ورمت القوارير وأطلقت نداء النّجدة... جاء صاحب الحانة ثانية... وقف بنفسه على الحالة واستمع إلى شهادة الشّهود وإلى المدّعية والمدّعى عليه ثمّ أمر النّادلة أن تعتذر للحريف.

بعض السّكارى اقتربوا من بعضهم حتّى تلاصقت رؤوسهم ووشوشوا بينهم كلاما قصيرا ثمّ أطلقوا ألسنتهم بالضّحك. الرّجل الأوّل الذي شاهد الواقعة لكز الثّاني و أسرّ له في أذنه خلاصة ما شاهد. ثمّ استمرّ اللّكز والوشوشة إلى أن انتشرت حكاية الزّبون الذي شوهد يغري إحدى النّادلات بورقة نقديّة ويلحّ عليها لترافقه إلى بيت الرّاحة ليقضي منها وطره ولو على

عجل . دسّت النّادلة ورقة من فئة الثّلاثين دينارا في جيب سروالها الخلفيّ وسبقته إلى حيث أشار... نهض جذلا وأسرع وراءها. كانت البيوت الثّلاثة مشغولة ... بقيت هي تمشي وتجيء أمامها... ووقف هو ينتظر أن ينفتح باب... ثمّ دعاها إلى الدّاخل.

- ثلاث دقائق بثلاثين دينارا. قال الجماعة.

ولجّوا في الضّحك.

في ركن آخر كان إلى حدّ ذلك الوقت هادئا أو كالهادئ اشتعل خلاف حادّ بين زبونين.

قال الأوّل للثّاني:

- هل تدري أنّي أعرف زوجتك جيّدا!

اشتعل في الآخر الغضب:

- أين عرفتها؟ زوجتي لا تغادر البيت ولا تتجوّل في الشّوارع ولا تعرف أحدا غيري.

- ها ها ها . ضحك الآخر وضحك معه جماعة آخرون.

تدخّل اثنان من طاولة قريبة لتهدئة الغضب وفكّ النّزاع. ولكنّ المسألة لم تقف عند ذلك الحدّ إذ أخرج المدّعي بيّنة مفحمة، أخرج جوّاله وأسمع الجماعة صوتا مسجّلا ثمّ التفت إلى غريمه سائلا:

- صوتها ؟ أليس كذلك؟

صاح في وجهه الآخر:

- لا. أنت تكذب. اشهدوا يا جماعة. سأشتكيه إلى الشّرطة بتهمة الثّلب.

ولكنّ الآخر واصل في عناده . أخرج الجوّال ثانية، بحث فيه قليلا ثمّ كشف وجهه أمام الزّوج المخدوع وأمام المتفرّجين الذين هبّوا من الطّاولات القريبة.

- قل أنت. من هذه؟

أمسك الآخر قارورة وضربها على الطّاولة. تسلّح بنصفها واندفع نحو الخارج هائجا كثور عنيد.

ترك السّكارى صاحب الهاتف وحيدا و ابتعدوا عنه حثيثا فدفع ما تخلّد ببطنه و انسحب في هدوء.

السّاعة تقترب من منتصف اللّيل... الباب الكبير يلفظ تباعا آخر الزّبائن... خرج رجل مسرعا كأنّه تذكّر موعدا أكيدا... وخرج اثنان يترنّحان يقودان بعضهما بعضا ويبحثان عن الطّريق... خرج كهل واتّكأ على شجرة قريبة وبدأ يقيء كلّ ما في بطنه، رآه أحد المغادرين بقارورة خمر في يده فأسرع إليه و صبّها على رأسه و وجهه ثمّ سأله مشفقا:

- لا باس توّ؟
- لا باس. يرحم والديك.

امتدّت يد من الدّاخل وأغلقت الباب الكبير فانتهى بإغلاق الباب الوقت الرّسميّ واقتربت اللّحظة الحاسمة... لم يبق بالشّارع أحد... لم يعد بكلّ الشّارع غير قطّة تراود بإصرار قطّا وتلاحقه من ركن إلى ركن ومن شجرة إلى أخرى. يختبئ فتطلّ عليه... تقترب منه فيفرّ بعيدا عنها... تحتكّ به فيثور في وجهها... كأنّ قطّات قبلها أرهقنه واستنفدن جهده وشهوته... كأنّه عازف عن المعاشرة. كأنّه لا يرغب في غير أن يخلد إلى النّوم... كانت ليلى تختبئ بسيّارتها في ركن مظلم ولكنّ ما كان يقلقها فانوس النّور العموميّ الوحيد الذي كان يلقي بضوئه على مساحة كبيرة من المكان.

نزلت مسرعة... التقطت حجرا ثمّ صوّبته بخفّة نحو الضّوء النّازل من عل... لم يصب الحجر الضّوء وعاد إليها... أعادت تصويبه من جديد فغطس كلّ الشّارع في سواد قاتم حتّى إنّها اهتدت بصعوبة إلى سيّارتها .

الصّمت كان يرين على المكان وذلك القطّ وتلك القطّة لم يعد لهما أثر... لعلّه استطاع أن يفلت منها أو لعلّها استطاعت أن تقنعه بالسّهر معها... مدّت أذنيها إلى ما وراء الباب الحديديّ الكبير وأصخت السّمع، صوت ارتطام قوارير وصناديق ... صوت باب داخليّ يصفق... صوت ضوء ينطفئ... ثمّ انفتح الباب الكبير... وقف رفيق برهة يبحث له عن موقع قدم في الظّلام... وقف إلى أن أحسّ أنّه أنس المكان وظلمته ثمّ جذب الباب و بدأ في إغلاقه. أدخل المفتاح و أداره مرّة أولى ثمّ مرّة ثانية ثمّ أخرى ثالثة ثمّ أدخل قفلا كبيرا بين طرفين حديديّين وضغط عليه. نزل درجة أولى ثمّ درجة ثانية ثم وطئت قدماه أرضيّة الطّريق المعبّد. دار المحرّك ولم تشتعل الأضواء واندفعت السيّارة كالشّهاب واضعة نصب عينها اليمنى ضحيّتها... ورغم هدير السّيّارة ، استطاعت ليلى أن تسمع صوت ارتطام رأس رفيق بالطّريق وأن تسمع عبر نافذتها المفتوحة صيحته الأخيرة.

* * *

موسيقى خافتة تنتشر في كلّ أرجاء الحانة... دخان السّجائر يشكّل طبقات كثيفة من السّحب والغيوم . سكارى آخر اللّيل ممسكون بقواريرهم وكؤوسهم وسجائرهم و جيوبهم وقلوبهم منصرفون بكلّ حواسّهم نحو الجسد شبه العاري النّاطّ بين الطّاولات راقصا كفراشة.

أسارير تتفرج وعيون تتطّ لاقتراب الرّاقصة... أسارير أخرى يعلوها الانقباض لمجرّد ابتعاد الحسناء نحو طاولات أخرى... أوراق نقديّة ووريقات عليها أرقام هواتف تدسّ بين نهدي الفاتنة شبه العاريين. وفتيات بار الهناء الأربعة الجديدات يرحن ويجئن، يأتين محمّلات بقوارير باردة ملأى ويعدن في اتّجاه " حميدو" المحاسب الجديد بجثث قوارير وبنقود كثيرة...

وقفت ليلى وراء الكونتوار تراقب موظّفه الجديد وهي تلوّح بيديها محيّية بعض الزّبائن. ظلّت تنتظر إلى أن أنهت الحسناء رقصتها لتصفّق لها مع الجمهور تصفيقا حارّا مسترسلا ثمّ تنسحب عائدة إلى سيّارتها.

جاءها و هي وراء المقود صوت "منصور" عبر الهاتف:

- أنا في انتظارك.

فردّت عليه:

- أنا في الطّريق إليك.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021
tél. +216 98 603 987